بين قيس وليلى

محمد صادق



رسالة الحب والجمال

إلى شباب العصر

بين قيس وليلى

(١)

تصدير

للمغفور له امير الشعراء احمد شوقي بك

بعثتَ (قيسًا) و(ليلى) ✱ وطيبَ عهدٍ تولّى
في موكبٍ من معانٍ ✱ يَرُعْنَ طهرا ونُبلا
كأنّ (جبريل) فيه ✱ يلقي عليهنّ ظلا
وفي كتابك منه ✱ وحيٌ من الحبّ يُتلى
فالحبُّ ما فيه يُروى ✱ والحسنُ ما فيه يُجلى
يا (صادق) الطبع هذا ✱ وصفٌ عن الوصف جلّا
وزنتَ جيلك فيه ✱ وزنتَ جيلك فضلا
أبدعت تصويرَ ما قد ✱ صوّرت لونًا وشكلا
هذا رفائيل فيه ✱ بسحره يتجلّى
وكلُّ (قيسٍ) تمنّى ✱ لو حلّ منه المحلّا
وكلُّ ليلى تمنّت ✱ لو أنها فيه (ليلى)

✱ ✱ ✱

رأيتُ من كلّ فن إلا لفنّك مِثلا

شوقي



المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الفاتحة

أما بعد فإنّ هذه الرّسالة ، فيما أرى ، تخييلُ لهوى تجدّ على الزمن جدّته حتى كأنّه على تناهيه بدايةٌ ولكنها لا تزال على أولها تمدّ وتبدأ ، فهي في كلّ ساعة قدَر تلك السّاعة ؛ لأنه هوًى فتن على الهدى فتونه . وجنّ على الرّشد جنونه .

وهي، فيما أحسبُك ترى، سرّ من الخلود تنفّس به قلبٌ في قلبه فلم يكن في القلبين إلا قدَرا تحوّل به القلبان حتى كأنما خلق به في كلٍّ منهما كونٌ سحريّ في هذا الكون ، وهما الحبّ الذي حنّ حنينه . والجمال الذي تنزّه ظنّه ويقينه .

وهي ، فيما يرى كلُّ قيس ، مثاله البيانيُّ في مرآة اللغة لو أمكن أن يخرج مثاله على هذه المرآة وضعاً كلاميا ، وفيما ترى كلُّ ليلى ، تمثالها البيانيُّ في تلك المرآة لو أمكن أن يخرج تمثالها على تلك المرآة وضعا من الكلام .

وقد اطّـردت معانيها فى نسقٍ من كلماتها كما يطّـرد تيار الـكهرباء فى سلكه ساطعَ الأشعّة من كلّ زجاجةٍ تمسكه لترسله على وتيرة واحدة .

وكأنّ كـلٌّ فقرة من هذه الرّسالة تعبيرٌ عن تعبيرِ المعانى السماوية التى تتراءى بعضها لبعض فى كـلّ روحين لفّـهما من النور الأزلىّ شعاعٌ بعينه ، ولمحت فيهما منه لمحة واحدة تظلّ تتضوّأ فيهما حتى تدع هذه المعانى تتدانى وتتعاطف ثم تتجاذب ، فإذا كـلٌّ معنى فى إحداهما بازاء المعنى الذى يقابله فى الأخرى ، حتى كأنّه بازاء مرآتين من اللّـغة تُـلقى كـلٌّ على كلٍّ صورًا هى أشكال تلك المعانى كما تبدو متعاطفةً ليذهب بعضها فى بعضٍ ؛ وهذا فى بديع القدرة الإلهيّة من أسلوب الحـكيم فى التأليف بين روحٍ وروحٍ ولا أسلوبَ سواه .

ورجّـعت فيها الكلام فاطّرد ترجيعا يأخذ بعضه من بعضٍ ، فإن فيـه الى شاعريةٍ تتخـايل بها المعانى ، موسيقيّةً تتجاوب بها الألفاظ فتـدعها كأنها صدى لحن علوىٍّ ، وهـذا اللحن من طهره وسموه وروحانيته كأنه مرّ بالأفق الذى تخفق فيه أجنحة الملائكة فى طريقه إلى قلبى المتراسلين حبا سماويا كله ؛ لم ينزل خيال من المادة بمعنىً منه إلى معنىً منها ، ولا خطرت فى حرمه خطرةٌ حائمةٌ ، على فكرةٍ آثمةٍ ، ولم

يكن فى شيمة من تلك العلاقة التى يضع لها اصطلاح ذاتين اسم الحب لتكون تزويرا على الفضيلة بما يشبه الفضيلة ، كما تصانع حصاةٌ فتحسب من تضرُّب بريقها على ظاهرها أنها ماسة المنجم . . . وإنما الماسة بعرق النور الذى يترسَّل من كل ذرَّة منها لوناً الى لونٍ فينفض عليها صبغة تتألق من شعاع فى شعاع .

* * *

وقد جاءت هذه الرِّسالة بموضوعها رسالة حبٍّ علويةً موجهة إلى شباب هذا العصر ، ولعلها تصلح أن تخاطب بها الانسانية فى هذا الشباب فقد انبعثت من أحد جانبيها صيحةً تدوِّى لترتدَّ إليها من الجانب الآخر أغنيَّة تطرب ؛ وهى تشوق النفس بمعنىً وتسوقها بمعنىً ، مترفِّقةً مترفِّقة ، إلى حقيقتها العليا لتجذبها هذه الحقيقة الى أفقها الأعلى ؛ ومن ثم تتصل شيئا بطرفٍ من الجمال الأزلىِّ الذى تقدَّس كونُه فى كونهِ فيكون على الانسانية بذلك ظلٌّ من جلال الألوهية ، وذلك هو الأصل فى خليقتها . والمراد بحقيقتها .

* * *

وقد تناجت بهذه الرِّسالة شاعريةُ حبيب روحانىٍّ فى ذاتِ قيس

آخر ، وروحانيّة حبيبةٍ شاعرةٍ فى ذات ليلى أخرى ، وكلاهما ، كما ترى من فلسفته ، صوفىّ النزعة ، عبقرى المتّجه ، روحانى الخيال ، يرقى أرقى ما بلغت الشاعرية فى تصوير الحقيقتين اللتين تتقابلان فى طرفى الإنسانية ، لترتفع بأقوى قوتين فى طرفيها وهما الحبُّ والجمال .

وقد دارت هذه الرّسالة على معانيها فيما كان يجده كلٌّ منهما من الوجد بأحبِّ شخصيه إليه ، حتى كأنّ صُحُفها ذوب قلبين جرى كلمةً إلى كلمة ، واتّسقَ سطرًا إلى سطرٍ ، وانتظم رسالةً على رسالةٍ ، فقد ملىء كلٌّ من القلبين حبا برْحا حتى لو نزِع من موضعه من صدر صاحبه لبقِيَ حبُّ صاحبه فى موضعه منه ثابتاً متنضّرا لا يريم ولا يَبلى :

وفيما كان يتفق أن يلبس أحدها من سُقم لا يلبثُ الآخر أن يجدَ أوجع مسّه فى نفسه على فترة من الترا سُل بينهما ، فإن كلاً منهما كان ، على تقاذُف النوى بهما ، ينفذُ إلى صاحبه من دنيا من أخيلته وأمانيّه وأحلامه فيكون كأنه معه يسمع ويرى ، ويألم ويتوجّع ، ثم لا يكون صاحبهُ فى فن قلبه إلا دُنيا هى أكبر من هذه الدنيا .

وفيما يصوِّر كلٌّ منهما لصاحبه من اللّهفة التى تمدّ فى دمه مدّها ، وتحرُّ على كبده حرّتها ، وتبعثُ فيها البعثةَ بعد البعثة ، كأنها من

لطفها وجذبها وقوة سريانها ، رُقية من السحر تنبع من قرارة نفسٍ لتقع مواقعها من قرارة نفس أخرى .

وفيما كانا يتواصفان من هوًى بِدْعٍ في الهوى، وحنينٍ يدَع القلب كأنه مادةٌ ناريّة أمسكت على موضعه من الصدر ؛ فهي فيه ضرمٌ يستطير ولا يهدأ ، وصبابةٌ تضغط ضغطتها ، وتجدّد جدّتها ، حتى تكون سوْرةً من جنون قلبيهما .

وفيما كانا يتناجيان به من خطرات نفسيهما ؛ من كلّ خطرة كأنها طبقةٌ من النفس تطير بجناحي البريد في جوّ كتاب ، وإذا هذه النجوى بينهما عناقٌ بمعنييهما من وراء شكليهما الانسانيّين .

وفيما كان يتفرّع من أفنان هذه المعاني ، أو يتّصل بها ، أو يرف حولها ، وما كان ينحسر أو يمتدّ من ظلال هذه المعاني ، وما يحرّ من هذه الظّلال حتى يتلهّب ، وما يلطُف وينسم منها حتى يتندّى .

فقد كان قيس يرى ليلى في تعالى جمالها عن القياس ، وسموّه طبقة فوق طبقةٍ إلى ما فوق عقله وطبيعته ، أنها هي نصٌّ كامل من تعبير الكون عن جماله بأسلوبين رائعين ؛ أحدهما من الإيجاز البالغ في مظهر من أنوثتها وهي طبيعة تحدّ وتنتهي ، والآخر من الإطناب البالغ

في مظهر من الطبيعة وهي الأنوثة التي لا تحد ولا تنتهي .

بل كان يراها فوق الفوق أبدا ؛ فهي في فكره روعة فوق ما يسع الفكر ، وفي تقديره جاذبية فوق ما يمكن التقدير ، وفي حسه جلال فوق قدر الحس ؛ ويرى ما في هذا الكون من روعة فيما دق وما جل من أشكاله ، وجاذبية تتماسك بها أجزاؤه ويجذب بعضها بعضا ، وجلال يسري فيها رائعا رائعا ، لم يكن أكثر من تفسير للمعاني الأخاذة من روعتها وجاذبيتها وجلالها ، ولكنه تفسير بالأسلوب الأخاذ الذي يجل ويجذب ويروع .

وكانت ليلى ترى أن الكون كله قد حيز لها مصغرا مصغرا في الشكل الإنساني الذي يتراءى فيه قيس ، وأنها قد ملكت الملك الكبير لأن قلبه لم يعد في صدره أكثر مما هو بين أصابعها .

وقد كانا من أخيلتهما ونزعاتهما وسبحاتهما ، كأنهما يفوران على النار القدسية التي تنفي عن الإنسانية فيهما جمحاتها ونزعاتها وشهواتها ، فتدع هذه الإنسانية من الإشراق الإلهي الذي يلمح فيها لمحا كأنها شكل من الروح مثل للعيان .

بل كانا من حياتهما كأنهما يحييان في منطقة من جو كوكب ،

فيهما فى تلك المنطقة يتضوّآن لأن حياتهما فيها تمحّص عنصرا عنصرا ، وتتوهّج نزعةً نزعةً ، وتسمو بالسبك حالاً على حال ؛ حتى فنى من طبيعتهما شكلها الأدنى وبقى شكلها الأعلى ، تنبعث من خياله المشبوب أشعةٌ تلبس كلّ ما حوله طهرًا وجمالاً ونورا .

ولم يكن التراسل بينهما إلاّ فيضاً من وحى تلك المعانى النّارية التى تطير فى الدّم طيرة بعد طيرة ، لتقع فيه رجفةً بعد رجفةٍ ، ثم تلبس اللّغة هذه الرّجفات ، فاذا هى أوضاعٌ وكلمات ؛ بل كأن هذه الكتب لم تكن من كلمات ومعان تستسرّ ، أو تستعلن ، أو تقع بين ذلك ، وإنما هى أشعّة روحانيتين تلتقيان أبدا فيذهب من كلّ فى كلّ ، ومن ذهاب ما يذهب من تلك فى هذه ، مجىء ما يجىء من هذه الى تلك ، فلا تكون الكتب بينهما إلا ظلالاً لهذه الاشعّة تتطرّح وتمتدّ امتدادها .

وقد كان قيسٌ يكتب الكتاب الى ليلى من كلماتٍ تفيض على قلبه ، فتقرأ تحت ظلالها الكلمات التى تفيض فى قلبه ؛ وكانت ليلى تكتب اليه الكتاب فإذا مع كلماته التى لها معانٍ ، معانٍ أسمى منها وأنبل وأكبر ولكن ليس لها كلمات .

فعلى كلّ عبارة مما تطارحه قيس وليلى فى هذه الرسالة طابعان من حاسّتين قويتين ؛ إحداهما إنسانية تخلق المعنى خلقا سويًّا ثم تفرغه فى قالب متخيَّرٍ من الكلمة التى هى نصٌّ فيه حتى لا يقعَ معنى فوْتَ كلمته ، وعلى ذلك خرجت الجملة من الكلمة ، والعبارة من الجملة، والرِّسالة من العبارة ؛ والأخرى سماوية تلقى على كلّ وضع من الكلام أشعةً بألوانها ، وتجعل من الأشعةِ الملوّنةِ صبغةً تتضوّأ حتى كأنّ الكتاب لم يكتب بمدادٍ على ورق ، ولكنه شُعَل من النور تواجه صفحة مرآةٍ مجلوّةٍ .

فإن كلًّا منهما حين يكتب لا يكون قلمه هو الذى يكتب ، ولكنه يتّصل بصاحبه من وراء كيانه المادّى ، فتكون روحانيته فى إنسانيته السامية هى التى تكتب ، لأنّ روحانية أخرى فى إنسانيةٍ عليا ، هى التى تقرأ .

فهذه الرسالة فى جملتها وتفصيلها ظاهرة من كهربائية قلبين تحوّلت فى القلبين حنينا روحانيًّا يفور فوره ؛ ويبعث فيهما الرّجفات بعد الرّجفات ، لتكون لمعانى الحنين لغة بتعبيرها .

* * *

وهذا النّسق الذى تراسل به المتراسلان هو ، قبل ذلك وبعده ، نسقٌ من البيان لأن الكلام اتّسق فيه على سننٍ من هذه اللغة فى بيانها .
وربما تلفَّف فيه سرّ ما أراه يسفر إلا لقليل من أهل البصارة بهذا الفنّ ، وهو الذى كان بعض الكلام يتأدّى به وعلى معانيه من شاعرية المتراسلين طابَعٌ أخرجه مخرج النّغم ، وفيه من هذه الشاعرية فنٌّ صعد بالدلالة من حدّها الأدنى الذى هو فى معجم اللُّغة لينتهى الى حدّها الأعلى الذى هو فى معجم النفس ؛ وفيه من هذا الفنّ روحانية رفّت بها الجمل رفيف الرّيحان تحت النّدى والشُّعاع والنسيم ؛ ومن ثَمّ تجدُ فيه الرُّوح الصافية نفَسا كنفَس الفجر أول ماينبثق من مطلعه . بل لقد غلا بعضُ من استمعوا لشىء من هذه الرسالة ، غفر الله لى ولهم ، فذهبوا الى أنه نغم ولحن ، ومعنى وموسيقى كلٌّ منهما بوزن ، وأن بعض القول فيها لم يُعد حَشْدا من أوضاعٍ ينزل بعضها من بعض على حكم الأصل فى مثلها مما يتراجعه بعض الناس ، ويتكثّر به بعضُهم . ويتزيّد به آخرون ، وإنما هو ظلٌّ من خلق قلبين يتندّى عليه فيض روحانىٌّ يعبّ زاخره . ولا يتشابهُ أوله وآخره .

* * *

والكتاب ، من حيث وضعه ، يدور على ثلاثة مقاصد عرضت كلها حتى كأنها لم تكن معنيّة وهي المعنيّة بنفسها ، لأنها هي المحور الذي دارت عليه هذه المعاني دورتها في النفس ، ثم جاءت وفيها من أثرها . وعليها من خبرها .

فأما أولُ هذه المقاصد فالضنانةُ بالحب أن يكون لهوا ومجانة وتبذُّلا وحوَمانا على الرذيلة ليس من ورائه إلا التردّي منها في هاوية . . .

وعلى بعض الكتّاب من تبعة ذلك أنهم يأتون من فنهم في الوصف ، أو القصّة ، أو ما يجري مجراها ، بأوضاع من التعبير لو كان الكلام ذاتا لما كانت فيه إلا عوارا ، ولكنه عوارٌ لم يُستر فبقي مكشوفاً ليكون فنّهم ، كما يصفونه ، أدبا مكشوفا . . فانهم ليصرّحون حيث تزيد الكناية على قدر الحاجة ، ويُطنبون حيث يُستكثر الايجاز ، ويصفون فيما بين ذلك من نزغات أشخاص القصّة ، ومعاني تلك النزغات ، وظلال هذه المعاني ؛ ثم يشقّقون بعض هذه المعاني من بعض ، ويعرضونها معرِضا تتبرّج فيه لتغري . فإنهم ليسُّون معنى بمعنىً ، ويُلقون من ذات على ذاتٍ ، ويزيحون الستار فيما بين ولكن عن دمامة رذيلة !! يحسبون أنهم بذلك يغرون خفاف

قرائهم بفنهم الجديد . . وربما استثار رنين النقد الزائف طاعية المعدم إذ يحسبه ذهبا بمادته ووزنه فلا يلبث المعدم أن ينسل منه اللص، ثم لا يلبث اللص أن يسرق . وكأنه أمن التبعة لأن الفن الجديد عسى أن يشفع فيه فلا عقوبة !

وإنما سمة الحب التى يوسم بها، أنه يطهر النفس ، ويصفيها ، ويسمو بها سموه ، فيرفعها إلى جو ملائكى تستكمل فيه الكمال المقدور لها منذ الأزل .

وإنما الشأن فى الحب أن يكون نسكا بالعاطفة فى محراب الإنسانية حين تمسها يد الله فتطبعها بطابع من القدسية ؛ فما الحب إلا أسلوب من القدر فى بناء الإنسانية يدع الإنسانية ينقدح فيها معنى بعد معنى ، ويشيع فيها سر بعد سر، ويتأتى فيها شىء بعد شىء ؛ والحب كالرسالة؛ هذا يجىء من حالة تدع القلب يقول فى كونه أين الحبيبة ؟ والرسالة تجىء من حالة تدع الكون يقول فى قلبه : أين الرسالة ؟

ولعل الفتاة تحسب من حظها أن تقرأ هذه الرسالة وتعيدها وتستعيدها ، لأنها تقرأ فيها نفس فتاة تحول ضعف مادتها قوة فى روحانيتها ، وفنى جزؤها الأدنى فى جزئها الأعلى ، ولم يبق من إنسانها

إلا إنسانيته العليا يلوحُ فيها إشراق إلهى ، فهى حين تقرؤها تحسُّ أن قد سرت فيها قوة سماوية مجدّدة ، فى صور من البيان معدّدة ، وعلى ذلك تكون هذه الرسالة تربية نفسانية .

وأمّا المقصد الثانى فهو إمداد القارئ والقارئة بأمداد متلاحقة من المعانى التى لم يمسّها قلم كاتب ، ولا لمستها أنملة مصوِّر ، وهى ، على أنها تعرض فى سياقها معرضاً كما ترى ، معان فيها نارها أو ماؤها ، وعليها جدّتها ورواؤها ، ولعلها تبلغ بذلك أن تكون تربية للفكر .

وأما القصد الثالث فهو إخراج هذين المقصدين فى ديباجة عربية جَهْدَ ما جَهَدَ العجز ، منسوجةٍ قُصارى ما قصّر الضعف ، فما أزعم أن على هذه الرِّسالة من سَرَق الحرير رقة ، ولا أن فى نسجها إحكاما ودقّة ، ولكنى أزعم أنها حُمادى ما واتى العجز ، وقدْرما قدَرَ الضعف ، وعلى قدر ذلك ونصِّه آمل أن تكون تربيةً للملكة ؛ يجد عليها مريد البيان هدى الى شكول من الأوضاع المستطرفة فى التشبيه والاستعارة وغيرهما ، ويقف فى سياقها على سرّ من الإعجاز الفنىّ فإن لكل فنّ سرّا من الإعجاز لا ينكشف إلا بالجهد والمعاناة .

على ذلك بدأت هذه الرسالة ، وعليه درجت فى وضعها ، وفرغت من موضوعها .

وإنى لأتقدّم بها الى الناطقين بالضاد ، عسى أن يكون منهم من يتوسّم فيها نضرة من الجدّة ، ويطّلع منها على معان من القلب والعقل عدّة ، ويهتدى فيها من كون النفس إلى حقائق ، ويقف من فطرتها على دقائق ، ومن يلوح له فيها خيال من الشعر رقيق . كزفرة الهوى فى النسيم ؛ ومعنى من الابتكار دقيق . كمعنى الحسن فى الوجه الوسيم ؛ وحكمة ملهمها بالحمد حقيق . وكأنها من الجنّة لا لغو فيها ولا تأثيم ؛

محمد صادق عنبر

إهداء الرسالة

إلى التي تعينني فأكتب وأعينها فتقرأ

المؤلف

زهرة تتفتح للنسيم

من ليلى إلى قيس

- ١ -

قيس :

أعرفُ ماذا أدعوك فى قرارة نفسى منذ رأيتُها فيك غيرَ ما كنت أراها من قبلُ ، ولكنى لا أعرفُ الساعةَ : وأنا أكتبُ إليك لأول مرة ، ماذا أدعوك فى رسائلى ، فإن ما يمكنُ أن ألقبك به مما تواضعَ عليه الناسُ فى مراسلاتهم لا يزال ، فيما أرى ، أقلَّ مما أنت حرىٌّ به منى .

فأنت آثرُ عندى من أن أدعوك صديقى ؛ لأن الصداقة أيًّا كان أفُقُها الذى ترقى إليه ، لا تزال بمقصرٍ عن تمثيل صلتى بك ؛ فإنّ جهدَها إذا كرُمت أن تكون علاقة يجتمع فيها خُلُقا صديقين ، إذ كانت مادتها وحدة خُلُقين ، فأما صلتى بك فإنها أعزُّ وأكرمُ وأسمى ؛ لأنها مرآة مجلوّة ترى كلاً منا نفسه كما هى فى نفس الآخر ، وهى مرآة لا تصدأ أبدا ، وهى صلة أرانى أستحيل بها وإياك معنيين ساميين فى رسالة المثل الأعلى للإنسانية فى هذا العصر .

وأنت فوقَ أن أدعوَك مهذِّبى لأنكَ أنت الذى هذّبتَ ماهذّبتُ منى ثقافتى ، حتى كان من أثرك فى نفسى أن سموتَ بإنسانى إلى أُفُقهِ المقدورِ له ، ثم سموتَ بإنسانيّتى فوق إنسانى ، ثم سموتَ بنفسى فوق هذين كليهما .

وكان بودّى أن أدعوَك أخى لولا أنى أرى أجمل معنىً من الأخوّة لا يعدو أن يكون سموًّا بنفس إلى حدٍّ من العدل يُسوِّى فيه بين نفسين ، على أن لكلٍّ منهما شخصيَّتها التى تتميَّز بها وتستقلُّ ، فإذا خفَّ بهما هذا المعنى إلى مافوق هذا المستوى ، وقليلا ما يخفُّ ، لم يزد على أن يكون فى إحداهما إيثارا للأخرى ؛ على أن الأخوّة تستمدُّ من الدم أو العصب أومنهما معاً ؛ فأمّا صِلتى بك فهى فى رُوحانيّتَينا ففيهما وحدَها معانٍ تفوت ما فى الصَّداقة الكاملة ، ولا يفوتها ما فى الأخوّة الفاضلة ، وأظهرهذه المعانى وجدان كلٍّ منا نفسه فى نفس الآخر ، وأكبرُها اندماجُ كلٍّ منهما وهى كونٌ صغيرٌ فى هذا الكون .

فأنتَ أحبُّ شخصىَّ إلىّ ، إذ لا أجدُنى فى وحدتى إلا كما تكون حقيقةٌ ينقصُها ما تكمل به ، فإن ما يكمل الشىء بوجدانه هو بعينه ما ينقصُ الشىء بفقدانه .

لا ، بل أنت مَثَلى الأكمل الذى يمرُّ بخيلتى فى اليقظة والنوم معاً حلما لأنه هو الحلم الذى تتراءى لى فى أثنائه حقيقتى ولا تزال تتراءى مكتملة مكتملة .

ألا إنّ أجمل ما أدعوك إيّاهُ فى رسائلى إليك ، وأحفله بالمعانى التى أريد لأوجزها فى كلمة واحدة ، هو اسمك كما هو ، فان فى اسمك صفاتك المثلى وإن لم ينطق بها فمى ، ولم يكتبها قلمى ، على حين أن كثيرا من الصِّفات التى تُقسر على بعض الأسماء تبرأ من هذه الأسماء ! وإننى بذلك لأدنو بك وبى معك من رحمٍ قريبة بيننا ، هى دوحةٌ فرعَتْ من صنوين أعليين تنتهى بهما ، أصلين صنوين ننتهى إليهما ، وهى لعمرى رحم أبرُّ بها من قبلى بقدرى ، وأرجع إليها كلما لحُت لخيالى وفكرى .

على أن الحبَّ فى نفسه هو أقربُ قرابةٍ بين نفسين ، إذ كانت كل قرابة أُخرى إنما تنزل منها منزلة العنصر من مادته ، وهى قرابةٌ تزداد على تقادُم الزمن صِبًا وقوةً وجدّةً فلا تهرم ولا تضعف ولا تبلى ، وهى تنتقل بالوراثة لأنها فى الدم كما تنتقل كل فضيلة أخرى على اطّرادها .

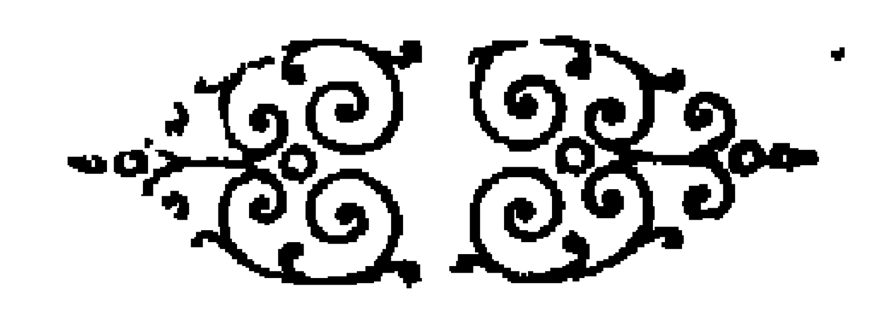
أجل ، قيس ، قرابةُ الحب هى القرابة الوُثقى التى ملأت نفس

كلٌّ منا من نفس الآخر، حتى لم تعُدْ إحداهما تتميَّزُ من الأخرى . على أنه لا حاجة بواحدة منهما أن تتميَّز ، ولا ذلك بمَلكها ، لو أرادته ، بعد أن ذهبتْ كلٌّ منهما في الأخرى ولا تزال على ذلك تذهب فيها .

ولقد كرُمتَ عليَّ بأنفس هدية تُهدى ، وإنها الهدية زكَّت شهادة حسِّى لك ، على أنها شهادةٌ فى أثنائها تزكيتها لأنها ثابتةٌ بشهود وأدلة وهى شهادة عِيان ولا برهان بعد العِيان .

فلله ما أكرمك ثم ما أكرمك عليَّ .

« ليلى »



خفقة قلب لقلب

من قيس الى ليلى

- ٢ -

ليلى :

لمست يدُ الله قلبي حين مسّت يدى كتابكَ الكريم ، فقد أحسست هذا القلب يخفق على إيقاع نبراته الموسيقية .

ولقد تلوته مرّات ، فكان فى كلّ مرة يُكشف لى فيه عن معنىً جديد ، ولست أدرى أكانت هذه المعانى فى أطواءِ كتابك ثم رفّتْ على نفسى منه ، أم كانت فى أطواءِ نفسى ثم رفت على كتابك منها ، على أنه كان على الحالين متعة نفسية ، فوق أن تُقدر بثمن .

ولقد كنتُ من هذه المعانى السماوية كالمُعدم ، فعُدت أباهى بما وهبتِنى منها ؛ ولو أردت أن أصوِّر لك هذه المباهاة ، وقدرَها فى نفسى ، لقلت لك إنه لا يشبهها إلا تيه رجل من الناس ، يفاخر الناس كافّةً بأنّ فى قلبه عينا تنظر من قريبٍ الى الجنّة . فإن هذه المعانى لتكوّنى تكوينا جديدا ، حتى لأحسبنى أُخلق خلقا آخر .

وإنك لتضيفين الى حياتى بكتابك حياة يُشعرنى بقوتها أنى أرانى اليوم أكبر مما كنتُ أمس ، كأنما لا بل قد تسرّبتْ الى نفسى من نفسك قوةٌ سحريةٌ لا عهد لى بها من قبل .

ألا إن فيك لمعجزةً إلهيةً . وكأنك بعثتِ الىّ بوحيٍ كالملكُ سبيلُه ، ولطفُك جبريله ، وقلبك دليله ، وقلمُك ؟ قلمك فى هذا الوحى هو الملكُ عليه تنزيله .

ولقد كان لهذه المعجزة من الأثر فىّ أن معانىَ كتابِك تشيع فى قلبى كما يشيع الطّيب فى معبد ، وانى لأُرانى الساعة غير ما كنت ، فقد كشف لى فى هذه الدّنيا عن دنيا أخرى فى إنسانةٍ ، وأُحسُّ أننى فى هذه الدنيا أحيا الآن .

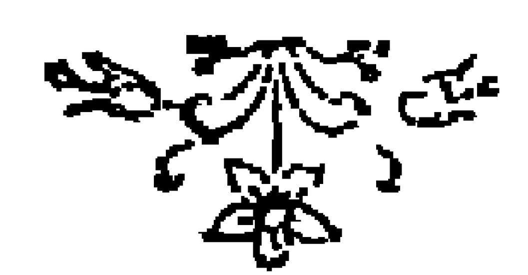
أجل . ان بإزاء العالِم المقتحمِ الذى يخاطر بذاته ليكشف عن مُلك مجهول ، هذا العاشقَ الممتحَنَ الذى يخاطر بروحه ليكشف عن روح مجهولة ، وإن كان ذاك إذا اهتدى مَلك . وهذا إذا اهتدى ياأسفا عليه ، قيل هلك .

ولقد أصبت فيك حياتى التى تذهب حياتى فيها ، وشفائى

الذى يدعُنى ما حييت على يأس من الشفـــاء .

وكأن الحبيبة أختُ الكأس، وكأن الحبّ أخو النشوة، فإنى أرانى من هواى ومن نشوتى معا حيا ميتا .

« قيس »



الطيف الحبيب

من قيس الى ليلى

— ٣ —

ليلاى :

كان كتابُك الىّ كأنه لحنٌ سماويٌ سرَى على أوتار عود إلى جهات نفسي فانبثّت في كلّ جهة منها نغمة منه ، فهذه نغماته تتجاوب في نفسي وتجول فيها مجالها .

لا بل كان كأنه نفحةٌ من الفردوس سرى اليك عبَقُها لِتكون في كتابك روحا تنسرق حواسيّ بجملتها لكل جملة منه .

فهل كان كتابك من جُمل وكلمات أم من قوة سحريّة غمزت على روحي غمزات ولمس قلبُك بها قلبي عدة لمسات ؟ .

فهنا كلمة منه رفّ عليها نفسُك أطيب مارفّ نَفَس وأزكى .

وهنا كلمةٌ كأنما تألقت فيها بسمة منك أبهى ماتألقت بسمةٌ وأومض شعاعها .

وهنا وهنا كلمات كأن فيها قوة جذب المغنطيس أقوى ما كانت

جاذبيته قوة ، وأتمّ ما كانت قوته لطفا ؛ ومن ثم قرأته لا بنظرى. ولكن بفكرى . وتلقفته حرّة صدرى فاهتزت له روحى اهتزازة وجدتك،فهل كنتِ معى،فى أثنائها .

ولقد قرأته إثر سِنة كنت فيها مع طيفك الذى رفّ علىّ فى حالة لا هى من الكرى ولا هى من الوحى ولكن فيها منهما .

فإنى وجدت كأن حقيقتينا كلينا قد رقّتْ ورقتْ الى أفق من المجاز كان الحب فيه بيننا يخرج من صورته الى صورة من التعبير السماوى لا تتأدّى بتعبير ، فيا له طيفا يعذّب لكن بغير أسلوب العذاب ليرحم لكن بغير أسلوب الرحمة .

فإنه طوى إلىّ الأبعاد كلّها ، ولكنها بقيتْ فيما بين نفسى ونفسك أنت . . وأدنى مِنىّ مُنى نفسى جميعها إلا المادة التى تجتمع لى فيها هذه المُنى . وملأ نفسى فتنةً ونشوةً وصبابة ، وجنونا من الفتنة والنشوة والصبابة ، وكأنما أفرغ فيها دنيا من أخيلتها فى سِنتها ليضاعف عليها باليقظة آلام حسرتها .

فيا لى من الطيف ماذا محا منى وأثبت فىّ ، وماذا أثبت فىّ ثم محا منىّ .

« قيس »

فى اليقظة والنوم

من قيس الى ليلى

- ٤ -

ليـــلاى :

لم يـكد كتابُـك ، وهو ظلُّ نفسك ، يرفُّ على نفسى حتى أدّى إلىّ أن مَلـكاً يرسل إلىّ من جناحيه رفيفا عَـطِرا يخفُّ على هـذه النفس ، ثم يخفُّ بهـا ، ولـكن إلى أين والملك فى السماء ؟

إنك لتلوحين لى من وراء حجابك الذى يُواريه من البعد حجابٌ آخر ولـكن كما يلوحُ الهلالُ من خلف غمامةٍ تُـظلُّ غمامةً أخرى، وهو بعد فى سمو مكانه ، وإن كان من ذلك المـكان . يسلسل النور فى عينى رائيه .

أجل ، إنك لتلوحين لى فى صُورٍ لا تفضل صورةٌ منها صورةً أخرى لأن كلاً منها مظهرٌ للجمال الذى ينشده الشاعر ليتّخذ منه مادة شاعريته ، فتكون كلُّ قصيدة من شعره كأنها فن من الشعر ،

ويتلمّسه المثال لينحت دميته على مثاله فتكون كأنما تحيا بروح من الفنّ، ويحلم به المصوّر في يقظته فيفسّر حلمه في صورة يحسبها رائيها من الجنة لأنها لا تكون إلا لحورية من حورها العين. ولكن كلا من أولئك لا يقع له ذلك الجمال ولا يمكن أن تهيأ له إلا في خلق من خياله .

فانك تلوحين لي في يقظتي أمنيةً كما أحب، والأماني أحلام اليقظة . وتلوحين لي فيما يرى النائم حلما فوق قدر التمني والأحلام أماني النوم. وإن طيفك الملكيّ ليخطر على مخيّلتي كما تخطر صورة الجنة التي وعد المتقون على مخيلة تقيٍّ موعود، وإن لم يكن بيني وبينك إلا خطرة من القلم الالهي على لوح القدر، وكان بين التقي وجنته مسيرة عمره كله . .

ولقد كنت أحسب الحبّ لا يعدو أن يكون امتحانا من الانسانية لحقيقتها في نفسين ، وأن جهده أن يفني إحداهما في الأخرى ، فلما حببتُك أيقنتُ أن هناك حبا أجلّ وأمكن وأسمى، وهو هذا الذي لك في نفسي ، فاني أشعر أنى أحبك بقوة جنسي كله لأنني ألهمت أن فيك محاسن جنسك كلها .

ولست أكذبك فقد عادت حياتي كلها حنينا روحانيا، لأنها

طواف بالروح فى أفق سعادتها فمتى ينتهى بهـا المطاف الى جنتها ؟
ألا نظرة إلى هذا الحبّ الروحانىّ الذى ترتع فى جنّتِه روحى وهى لاتجد فى ظل تلك الجنة إلا أنس العزلة ، وسكينة القلق ، ولذة الألم ، وهل يكون الحبُّ إلا ما وصفت ؟

لقد خلق الله الروح ليحيا بها الحىّ . ولـكن روحَ المحب لاتزيد بذلك الحبّ على أن تموت بغير موت ، ولعل ذلك أولى له من أن يحيا بغير حياة .

فتباركت اللهم .

« قيس »

نسك فى محراب الحب

من ليلى الى قيس

- ٥ -

قيسى . .

حنانَكَ قل للقدر مهلا مهلاً فقد جرى بى وبك مِلءَ عِنانه ولا يبرح يجرى بنا لا يتمهّل ولا يسكن ، ومن ثمّ لانبرح موضعينا فلا نتدانى ولا نلتقى ، كأنّ هذه الفترةَ من الزمن خُلقتْ وفيها كما فى حبى لك معانٍ من الأزل فلا آخر لها ولا له لأن كلاً منهما يبتدىء فى كل حينٍ ولا ينتهى .

ولو أن للقدر علمَ هذه النازيةِ النارّية التى تستطيرُ فى القلب فلا يكون القلب بها إلا جمرةً فى أضعاف قدره ، لكان أرفقَ بى وبك من أن يمدّ بيننا هذه الفُرقةَ حتى نكون بها كأنّا على حدّى شريعة كلاهما يبين من الآخر بانه أحد حدّين . . . . فهما لا يلتقيان لأنهما متقابلان أبدا !

آمنتُ بالله الذى يقدر القدرعلى خلقهِ ؛ فمنهم من يلطفُ به فيما يجرى به قدرُه إذ يريه وجهَ حكمته فيه ؛ ومنهم . . . ومنهم من تمتحن

بالمحنةِ الواحدة فتكون فى نفسها ثنتين ؛ إحداهما من انها محنة والأخرى من أنها لاسكينة معها .

فقد خلق لى الله تعالى جارحتى السمع والبصر لأبْصُر بقدرته فى كونى ، وأسمع صوت حكمته فى تدبير كونهِ ؛ ولكنك زدت على سمعى وبصَرى معانى لم تكن فى أذن ولا عين .

وخلق فىّ عصبي الذى هو جهاز حسِّى كله ، ولكنك زدت عليه جهازا معنويا أبصرك به ، وأسمعُك ، حين لا يمكن العينَ ولا الأذنَ ، وأرانى به معك ولو لم تكن منى بمرأى ولا مسمع ، وأراك به معى ولو كان أحدنا عند أول حدٍّ من الدنيا والآخر وراء أول حدٍّ من الآخرة .

وخلق فىّ شعورا كنت أجدُ به وسوسة النسمة الضعيفة الذاهلة فى خِسِّ الزّهرة قبل أن يجد حِسُّها هذه الوسوسة ، وأرى به وجوه المعانى المنتقبةَ وراءَ النظرة العارضة ، وأتميَّز به الأخيلةَ التى تتراءى فى أثناء هذه المعانى ؛ ولكنك بحبك أنشأت فوق هذا الشعور طبقةً أسمى منه لأنها من الإلهام ، وكأنك وصلت ما بين طرف من هذه الطبقة وطرف مما وراءَ الغيب ، ومن ذلك أشعر ممّا وقع وجرى بما

بوشك أن يقع ويجرى ...

وخلق فىّ كائنا معنويا لايحولُ ولا يضعُف لحظة لأنه من النور الإلهىّ ، فهو على إشراقه يشتدُّ ويقوى أبدا ، لأنه هو وجدانى الذى خلق فى كائنى لحراسة الفضيلة فيه إذ كانت قوام الفطرة ولا فطرة بدونها ، ولكنك جعلت وجدانى حارسا لفضيلتى فى فطرتى ولحبك فيها لأن كليهما حبٌّ او لأن كليهما فضيلة ..

وخلق فىّ قلبى وكأنّه بما فيه من المعانى القدسية معبد كبيرٌ فى باطنى يتّصل منه باطنى بطرف من السماء ولكنك بحبّك نفثتَ فى هذا المعبد معانى عبقةً لا تزال تنسم على إنسانيتى كلها .

وخلق فىّ نفسى ولكنها لم تكن تسكن ولا تتقارُّ بل كانت منطلقة أبدا تبحث عن مثالها المجهول ، فلما تراءينا لأول مرّة سكنت نفسى وقرّت لأنها اتّصلت من نفسك بمثالها .

وخلق فيما بينى وبينه تعالى شُعاعا يترسّل من سمائه على حسى بالإيمان ، ولكن حبّك يتندّى على حسى فى هذا الشّعاع بمعانٍ من الحرارة كأنها هى تتمّة لهذا الإيمان .

وخلق فىّ فكرى الذى هو شعاعٌ آخر من النور القدسىّ لأهتدى

به فيما آخذُ وما أدَعُ ، ولكنك شغلت هذا الحيِّز كله حتى لا تكاد تلتقى فيه فكرتان إلا كانت إحداهما من حبك أو كان حبك فى كلتيهما .

وخلقنى فى كيانى ليسعنى وحدى ، ولكنى كنت أضيقُ به مرةً وكان يضيق بى أخرى ، فلما اتصلت نفسى بنفسك عاد كيانى غيرَ ما هو ، فقد وسعك معى فأنت معى فيه لا تريم ولا تبرح .

وخلق فى نفسى موطنا للأمل الذى لا تحيا بدونه نفس ، ولكنىّ كنت بلا أملٍ ، ومن ثَمَّ لم أكن أحيا إلا حياةً مجازية ، فلما تمازجت روحى وروحك ، وجدت أملى معى ، حتى لو نظرت فى مرآة لكنت عَسيَّةً أن أراه معى فى المرآة .

وقُصارى قولى أن الله تعالى قد خلق فىّ إنسانيتى لأحيا فى حيِّز من حقيقتها ولكنك زدت على هذه الحقيقة ما لم تكن بدونه من قبل إلا بعض الحقيقة.

وكان لى قلم لم يكن قبل أن أكاتبك أكثر من عُودٍ جفَّ لولا تندِّيه بالمداد ، فلما أخذت معك ، أخذ يستحيل فى يمينى فنَنًا فى مثل قدره؛ ومن ثم نبتت فيه هذه المعانى العطرة ثم نوّرت ثم أزهرت ، فلو لم يعد فنَنا إلهيا بعدئذ لما نوّر فيه هذا الزهر ، ولا نفح منه هذا العطر .

وكانت لى ملكة تنزع إلى أسلوب أيقنت فيما بعد أنه « سوقىٌّ » وإن زعمه المفتونون به تجديدا وما يتجدّد به إلا مُصاب اللغة بهم كلما كتبوا ، فهو أسلوب أبكمُ لا ينطق ، ولو نطق لكان عسيًّا أن ينعاهم إلى أنفسهم لو كانوا يسمعون . وأعجب ما أعجب له من طريقتهم اصطلاحهم على حسبان الضعف قوةً ، والافتنان فى الخطأ فنًّا من الصواب ، والخلط فى الصور أعلى صور البيان ، وعلى قياس طريقتهم تلك ، يكون اللّحن فى الكلمة نوعا من الاعراب ، والنقصُ فى العبارة مظهرًا من كمال التعبير ، وعلى هذا القياس يكون فى الجواد الهزيل الذى يزحف متعثرًا معانى الجواد الضّامر الذى يسابق الريحَ فى المضمار ! !

وهذه لعمرى فلسفة الفوضى ، وأولئك لعمرى هم فلاسفتها الذين أفلسوا من الصناعة الذهبية ، فقلّ من يُنفق منهم من دنانير الألفاظ وما أكثر من يتقارضون دراهمها ، على أن منها الزّيفَ الذى لا ينفُق إلا فى الظّلام .

فلما رفّ قلمك على قلبى ، رأيت فى أسلوبه الطبع العربىّ المجدّد المبدع ، حتى كأنّه يستوحى اللغة فهى على أسلته إلهــــام ، وهى فى

إلهامها سِحرٌ ينفذُ حتى يكونَ بين القلب وهواه ، ورأيت على ضوء بلاغته المشرقة سوءَ صنع أولئك المفتونين الذين لا يرون كاتباً عربيًّا كأنّ في قلبه عِرقاً من الماس إلا انقلبوا معه «شُيوعيين» وربما جدّ بهم الحسد « فتبلشفوا » !

فقد كان حبُّك نعمة غمرتني من جميع جهاتي ثم استفاضت منها على ما حولي ، حتى لقد تندّت على قلبي كما تتندّى كتبك على قلبي الذي يعتلّ عليّ في وحدتي ويكاد يَفنى منيّ خفقةً خفقةً ، لولا تماسكه على أمل التلاقي القريب ، فقد مرّت على تلاقينا لآخر مرّة فترةٌ لا يزال يوم اللقاءِ يتراجع عنا أمامها ، فقد أبطأ عليّ هذا اليومُ في دَورةِ الفلك اثنى عشر هلالا .

فمن لي بان تسرع اليّ هذه الدورةُ باليوم الذي أرجوه ! أو تسرع بي الى اليوم الذي لا ترجوه ! فان ذلك أروَحُ لي مما أكابدُ فيك .

« ليلى »



رسالة الذكرى

من قيس الى ليلى

- ٦ -

ليلاى :

كان فى كتابك الىّ همس سمعته وكأنه من سرّ معجزة يمكن بها ما لم يكن يمكن ، فقد خيّل إلىّ أنه لبى فى سلّم الزمن درجات ، وارتدّ بك فى مرتبة الوجود مثلهن ، فالتقينا لأول مرة بعد محنة البين ، التى تنفّس بها الزمن نفسا طويلا ، وما هى إلا أن التقينا حتى ظفر كل منا بنفسه فى مرآة من نفس الآخر ، لأن نفسه كانت تنتظره فى موطنها ، فكنا بذاتينا فى المكان الذى حوانا ، ولكنّا بمعنيينا كنا نصعد فى أفق عال عال . وفى هذا الأفق تحوّل الحب بيننا مرّة أخرى ثم تحوّل حتى عاد وحيا روحانيا ، كان من آيته أن لم يدع منا كلينا سوى الحقيقتين السماويتين .

ولقد عدت بمخيّلتى، على نور كتابك، إلى ذلك المكان الذى يشبهه أن يكون جهة كانت ملحقة بالجنة التى التقى فيها أول إنسانين ، غير

أنهما التقيا ليهبطا معا من الجنه ، وأما نحن فقد التقينا لنرتفع معا الى الجنة فارتفعنا .

وعدتُ من تاريخ هذا اللقاء إلى تلك الساعة التى كانت كأنها عنصرٌ من الخلود زيدَ على العمر، فهى على أنها فترةٌ محدودةٌ بطرَفين من أوّل وآخر ، قد استوعبتْ من تمازج معنيينا جذلا وسعادةً كلاهما يستنفد الوصف ولا ينفَد .

وعُدتُ من ذلك الظَّرف بزمانه ومكانه إلى ذكرى البعث الذى بُعثته فى الدنيا ، ولم أخرج منها بعد ، ولكن كأنى جئتها مرة ثانية لأكون فيها كونا ثانيا .

أفلا ترَين معى أن بين الأمكنةِ والساعات والأحوال ، وبين الإنسان صلةً موثّقة من الصّداقة لأنها تُريحُ وتندّى عليه . بأحبّ الذكريات اليه ؟

أجلْ لقد ذكرتُ إذ التقينا فلم أكد أملأ منك عينىّ حتى أغمضتهما على رؤيا سماويةٍ لم تكن من عمل المخيّلة ، بل كانت نسقاً وحدَها مما يجىء وكلّه صورٌ ومعانٍ قدسية تخيّل الجمال فى أقدس صوَره ومعانيه ، ثم نظرتُ إليك فإذا حقيقتكُ تواجهنى

باصدق تعبير لتلك الرؤيا .

وذكرت إذ عدت على أثر اللقاء كأنني عدت بعقد يثبت أنني ملكت في الدنيا أفتن بقعة في الجنة ، بأفتن ما في الجنة من الجمال الذي خلق ليعبد فيه مبدعه تعالى ، إذ كان مظهرا من مظاهر الجمال الذي وصف به نفسه .

وإني لأتمثلك الآن في ذلك الموقف الذي لمح فيه الجمال الالهي مفرغا في فنه الذي هو أبدا فنه ، وقد أوحى وحيه الى الحب الذي فار فوره ، ليحور الحب فيه معاني سماوية ثم يتأدى بهذه المعاني رسالة عالمية ، ما أشق أداءها ولكن ما أحق أن تؤدى .

ولله ذلك الموقف الذي تهامست فيه نفسي ونفسك ، وكان تهامسهما في نظرتين سالتا على جوانب المكان هوى ملكيا ، وتلامس فيه قلبي وقلبك في كلمتين نبعتا منهما فتمازجتا لأن فيهما نفحتين علويتين ، وتدفقت روحانية في روحانية ، فكان الجو الذي شملنا جوا شعريا محدودا ، ولكن فيه من كمال الانسانية التي صعدت الى حدها الأعلى معاني غير محدودة .

ثم أتمثلك وأنت في ذلك الموقف وجمالك الالهي بلمحة منه تشرق

عليّ ، يخلق فيّ معاني من رسالته ، فتتالق في نفسي لأن نفسي هي من صُحُف رسالته ، وبلمحةٍ أخرى يندى على وقتي معك حتى يزيدَ وقتي ، ويتضاعف من أنه يزيدُ ، وباتجاهة منه يُلقي على هذه المعاني ظلا من الإعجاز ، وباتجاهة أخرى يُحيلها خلقًا حيا بذاتيتها وعلويتها لأن الجمال والحبّ بتقابلهما في الانسانية يشبهان أن يكونا ناموسين متقابلين في الكون .

ثم أتمثّلك وقد لجلجتْ كلماتك فما هي إلاّ همساتٌ ولكنها كانت همسات تخفت على شفتيك ثم تخفت ، على أنّ صداها في نفسي كان يعلو ثم يعلو .

لقد كان قلبي بعد فرقتنا الأولى نهبا مُقسمًا بين ذكريات تغمره من الألم والشجو ، والخواطرِ الحزينةِ ، والتباريح ، بسيلٍ ؛ وربما طغتْ عليه الذكرياتُ فتركته معها كما يكون الشاطىء تحت السَّيل .

وكنتُ في هذه الدُّنيا كما يكون الغريبُ الذي أُفرد في منفىً سحيق ، فيه يموت عليه قلبه في كل ساعةٍ مرّة ، لأنه في كل ساعة يتلفّت مرة فلا يرى الى جانبه القلبَ الذي يخفق مع قلبهِ ، وآلمُ ما يكون النفيُ ، وأنكى ما يكون ألمه ، وأقتل ما تكون نكايته ، حينَ لا يجدُ

المنفيّ مع نفسه النفس التي إذا ملكه الجزع عاذ بها فخفّفت عنه سَوْرَتَه ، وإذا بَرَق له أمل العودة الى الوطن أراح عليها فتضاعفت عليه مَسَرَّته .

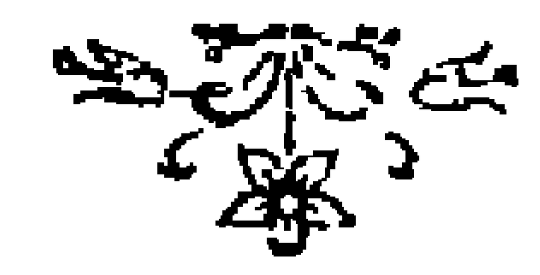
وكنت في بعدك أرى الحياة كما تتشابه صوَرُ الحلم على مستيقظ فقد تشابه عليَّ كل متماثلين فيها، فاذا أضواني الليل خلت كلّ سوداء منه حفرةً لي تُعدّ ، وإذا احتواني النهار حسبت كل بيضاء منه كفنا عليّ يُقدّ .

وكنت في ذلك البعد كما يكون المحتضَر طال به نزعه ، فهو في نزع لاموت معه ، لأن الحياة بعد تدبّ فيه ، ولا حياة معه لأن الموت أخذ يدبّ فيها ، فكلّ نَفس يتنفّسه فهو بين هذين ، فان بعدك قد تركني وروحي فيّ كأنها تفيض في كل لحظةٍ ، ولا جرم فان البعد يكون في حياة المحب موتا يبدأ في كلّ وقت ولا يزال يبدأ ؛ وكنت كالطائر حين ينشر جناحيه القويّين ليحلّق بهما ولكنه يظلّ موضعه لأنه لا يجد الجوّ الطّلق الذي يحمل جناحيه حين ينشرهما ، فكنتُ أبداً في موضعي كما تركتِني معطّل الجناحين من أني فقدت الجوّ ، فلما نسمتِ عليّ ووافيتني على قدَر ، وجدت الهواءَ والسماء كليهما فأنا فيهما محلّق بخيالي وآمالي جميعا .

ليلاى ! ليلاى ! هذه خواطر اجدّها لى طيف الذكرى الذى تراءى فى كتابك الىّ وإنها لذكرى تملأ موضعَ العزازةِ من نفسى ، فهى لذلك تملأ أطيبَ موضعٍ فى الكون ، لأن ما يملأ أحدهما يملأ الآخر .

وفى هذه الخواطر أسمى المعانى التى يخلقها فىّ الفكر فيك ، وما أجلّها وأدقّها .

« قيس »



نجوى الطيف

من قيس الى ليلى

- ٧ -

ليلاى

حرّت على كبدى أمس وقْدةٌ من وقدات الصبابة حتى كأن كبدى، منها على جمرةٍ مشبوبةٍ ، وكأن فى هذه اللهفة القوية التى تهدر فى دمى أبداً نفساً قوياً يُراوح تلك الجمرة وينسمها فهى لا تبرح تتلهب ، ولا تفتأ كبدى عليها تتقلّب ، فيا حرّة كبدى منك ماذا تعانى من صباباتها !؟

ونزت بقلبى نازيةٌ من الحنين اليك ثم نزت حتى كأن قلبى منها بين أضلعى طائر من قفصه فى إسار ، وقد جذبه الحنينُ إلى خميلته التى كان يسكن اليها كلما حرّت عليه الهاجرة ، ولكن قفصه موصدٌ عليه لا يفلته ، وأضلعى متضامّة على قلبى لا تنفرج عنه ، فيا لهف قلبى عليك ماذا يُكابد فيك من تحنانه !

وعصف بنفسى عاصفٌ من الوجد بك كالتيار القوىّ الذى يلفّ الغدير على مدّ مايجرى ، ثم يُدوّى فى أعماقه ما يدوّى ، فيا رحمتا لهذه

النفس ماذا تجدُ فيك من تباريح وجدها ، ثم ماذا تتجرّع من مرارة الصبر على وعدها!

فقد تهدّى الىّ طيفك أمس فى فترة لم تكن للذكرى تقرُّ فيها المادّة وتسكنُ ، بل كانت للوحى تستشرف فيها الرُّوح وتصفو ، فكان طيفك فى تهدِّيه إلىّ كالملَك يُرى ولا يُلمَس، بل كان نورا تمتلىء منه كلتا العينين ، ولا شىء منه فى اليدين ، وقد جعل يرفُّ حولى فيملأ علىّ حيِّزى منىّ وأنساً وأخيلةً حتى جعلنى منه فى جنة تعجز بلاغات اللغات عن وصفها .

وأحسبنى قلت للطيف فيما ناجيته به : أيها الطيف لقد تسلّلْنا من مادّتينا النائمتين وارتفعت بنا الحقيقة السماوية التى أُودِعها كلانا إلى هذا الأفق البعيد عن المادّة ، فكلانا فيه طيفٌ روحانى لا يحدُّ الا بالآخر لأننا مطلقان فلا تحيط بنا الحدود المادّية ، فناشدتُك الحبيبة التى أوفدتك إلىّ إلا مامنحتنى ما فوق الرضا لأجد به برْدَ الصبر على حرّ الصبابة ، وإلا ما نقلتنى من محنة البعد التى تميتنى ضعفى الموت إلى منحة القرب التى تحيينى ضعفى الحياة .

ثم عزمتُ عليك الا ما نقلت معنى هذه البسماتِ التى تتألّق على

شفتيك إلى شفتىّ ، ثم ارتفعت بى مرةً أخرى فوق إنسانى إلى حيث الحبيبةُ لأبق معها هنيهة ، لا هى من ليل ولا هى من نهار، ولكنها من غفلة الدهر ، فهلم أيها الطيف هلم !

هذا الى نجوى أخرى ودّت الملائكة لو تسرى بها ولكن . . . ولكن ياعجبا لطيفٍ يمنّينى ولا أمنية ، فقد كان جدّ ضنين علىّ أرجى ما كان للكرم ، فانه دانى حتى أطمع ، ثم نفر حتى أيأس ، وبين الطماعية واليأس طرفتْ عيناى لليقظة على زفرةٍ كاد ينشقُ لها قلبى وكأنما كانت هذه الزّفرةُ استفهاما معنويا من القلب عن جنته التى وافى اليها ليلاه !

ويك قلبى تسألنى عن ليلى ؟

إلا إنها فيك بكلّ ما جعلها هى ما هى ، ومن ثم تجدُ فيك هذا الكون المتجدّدَ ، ولست تجده الا من أحبِّ المعانى اليك، وآثرها عندك ، وأفتنها لك ، فما ملكت إنسانة قلب إنسان إلا كانت فى قلبه تخلق فيه المعانى الجميلة الالِهيّة التى لا يخلقها غيرُها ، فقد جعل الحبّ فيها وحدها من القدرة على الخلق ما لا يكون فى إنسانة أخرى .

أجل . ليلاى . لقد سَنحَ لى طيفك مسنح الظّبية الحذِرة ثم نفر

نفارَها وولىّ ، وبذلك انتهى الحلم حين بدأ ، وخرجت من الجنة باللهفة التى دخلتها بها .

ويا عجبًا لى حينَ رأيت طيفك فى هذه المرة فقد خيل إلىّ أنها أول مرّة رأيته فيها ، ومن ذلك شعرت أننى أخذت عن نفسى ، فقد كانت معه لنفسى لهفتها التى تثور ولا تسكن . وسرى فى دمى ذلك التيار الذى يطّرد فيه ولا يقرُّ ، كأن الحبّ وهو النسق الالهىُّ فى التأليف بين أسمى حقائق الانسانية فى نَفسين ليكون منهما المثل الانسانى الأعلى ، يأبى الا أن يبقى جديدا ، فهو على أنه بدأ فى النظرة الأولى يتجدّد فى كلّ نظرة بعدئذ ولا يفتأ ، ومن ذلك لا يزال الحب ينمو ويطّرد ويتضاعف ، لأن الجمال لا يبرح يتجدّد ، ومن ذلك لا يزال جمال الحبيبة ينصبُّ فى قلب محبها لأن قلب محبّها ظمآن اليه ، كأن مايجدُه به المحب الظمآن ريه يجدّ به ظمأه حينا !

كذلك الحبُّ الالهىُّ الذى تمسُّ به يد الله قلبين فتسمو بهما على نزغات المادّة ، لأنها تنفث فى روحيهما أسمى معانى السموّ حتى كأن روحيهما ضاربتان أبدا فى الأفق الذى خفق فيه جناحا جبريل ، وكأن

روحيهما في ذلك الأفق قلعتان سماويتان تعتصم بهما خلال الحب المتألهة وتحتمي .

ولست أحسبك تنكرين مني أن طرت اليك في الحلم بقوة كقوته تفني في حسابها أقيسة المكان والزمان ، لأنها لا تعرف مسافات ولا أبعادا ، بل تطوي الكون في لحظة ؛ ومن ذلك كان الحلم دنيا مسحورة تخلقها المخيلة في النائم فتسمعه وتريه مما سمع ورأى ، مالا يكون قد سمع ولا رأى ، وتعرض عليه مما مرّ ووقع مالا يكون قد مرّ ولا وقع ، ومن ثم يلذُّ النائم أو يألم كأنما كان في يقظةٍ هجعت قليلا أو في هجعة يقظت قليلا .

فيارحمتا لهذا المحب الذي حرم حتى في حلمه ما يمنح الحلم وينوّل ، ثم يا رحمتا له يألم في يقظته كما يألم في سنته .

فالى الحقيقة التي أحيابها أشكو خيالها ، والى الحبيبة التي ملكني حبها أشكو دلالها ، فلعلّ قلبها يقول لها برفقه الذي أعهده : أنصفيه ، أنصفيه !!

وسلمت ليلى .

« قيس »

رسالة الدمع

من ليلى الى قيس

- ٨ -

قيس :

اراسلك لأنى أفكّر فيك من قبل ومن بعد ، وفيما بين هذين الطّرفين اللّذين يرتدُّ أحدهما آئبا الى أزلى الذى أعرفه ، ويمتدُّ الآخر ذاهبا مع أبدى الذى أجهله، وأفكر فيك وأنت أحب شخصىّ الىّ لأنك منى بمكان الأصل من التكملة .

وانما أراسلك لأن من التراسل ترائيا بيننا فى مرايا مجلوّةٍ من الألفاظ . . وأفكّر فيك لأن من التفكير تلاقيا بيننا فى صور طريفةٍ من المعانى . . وإنما نتراءى ونتلاقى لأنى أحيا حيث أنا ، كما تحيا حيث أنت ، بأمل واحد يتراءى فيه ويلتقى اثنانا معا .

ولكن . وآه من هذا الحرف لأنه اعتراف بذنب فى سياق عذر ، ولكن معانىَّ التى تترسّل الساعة من قلبي اليك وكأنها تترسّل اليك بقلبى ، تنتثر من عينى دموعاً فيها من صفائها وتلهبها ، ففى كلّ دمعة فكر

سائل من معنى ، أو معنى سائل من فكر ، والدّمع منطق جنس من الألم هو هذا الذى يعنف على النفس ويعصف بها حتى يلفّها لفّا ، ، وكأنه يطغى على نفسى بمحنة إنسانية كاملة فهو ينصبّ فيها بالجموع المختلفة الأوزان من الأوجاع ، وهذا المنطق هو الذى عرفته ولا أزال أعرف منه . . فيا أسفا على أن رسالة معانىّ المنثورة دمعا لا تقرأ من بعد ، إذ كانت سطورا إلى سطور بالمداد المائىّ الذى ليس له لون .

وقد عالجت أن أنظم هذه المعانى رسالةً أخرى اليك من كلمات وجمل ، بعد أن انتثرت من عينىّ دموعا كالجمل والكلمات ، فاذا هى لا تجرى على أسلة قلمى . . . وما أدرى أهى التى تتأبى على قلمى فى هذه المرة كبرا ، لأنها فوق أن تسفر له ، أم هو الذى يأبى إكبارا لها أن يسفر بها بينى وبينك . وأيًّا من هاتين رجّحت فقد رجّحت الأخرى .

أجل ، إن معانىّ التى تتلهّب حتى كأن كل معنى منها فورةُ حسن نارىّ على حدة ، لا تتمثّل لك فى كتاب أيا كان جهدى فيه ، إلا كما يتمثّل مظهرٌ من الكون الذى لا يُحدّ فى مرآة صغيرة محدودة باطارها ،

فانها لا تحوى المظهر إلا مُصغَّرا مُصغَّرا ، ومن ثم يتأدّى فيها لا كما هو فى نفسه ولكن كما هو فى نفسها .

ولست أطمع أن أستنزل ملَكا أحمله اليك وحى هذه المعانى الذى يقوى ويتلاحق ، ولا يفتر ولا ينقطع ، فان مع كل نفس ملكيها وإن مع نفسى عدا هذين ملكا ثالثا ولكنه ملك إنسانى ، هو أنت ، أنت قيس ، ومن ثم كنّا وكلٌّ منا ينتقل اليه من الآخر من وحى النظرة الواحدة مالا يكاد ينتقل إلا بقصيدة رائعة الشاعرية . . .

فلم يبق إلا أن تتأدّى معانٍ فى صورتى التى أهديها اليك ، فقد يقنت أن البلاغة الانسانية تعيا ببعض المعانى فلا تملك إخراجها فى صورٍ من الكلمات ، وعلى ما تجهد فى ذلك ، وتتحفّ به ، لا تكون معها إلا عجزا مطبقا مع إعجاز مطلق .

ولكنّها على ذلك تتأدّى بالنظرة ، لأنها تتمثّل فى أشعة العين نجوى نفسية ؛ فان النفس هى التى تُشرف آنئذ من العين فتتكلم بلغتها وهى أبلغ وأدقُّ من لغة اللسان ، فان الانسان نظر قبل أن يتكلّم ، وللعين معانيها وبيانها وبديعها لأن فيها إنسانا يتكلم بلفتاته وبسماته وحسراته .

فعسى أن تتأدّى اليك معانيَّ في صورتي كما تتأدّى صلاةُ المريضِ المثبتِ حركةً خفيةً كأنها سكون شفةٍ الى شفةٍ، وها أنذا أُسرُّها اليك وهي كتاب سريرتي المنشور بين يديك .

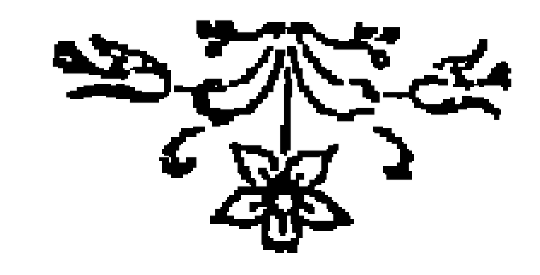
فتقبل صورتي وإذا تقبّلتها فاقرأ معانيها .

وإذا قرأت معانيها ثم قرأتها ، فإن قلبك خليقٌ أن يمثّلها تمثيلا بيانيًّا في رسالةٍ أراني فيها كأنني في مرآة ، وألمح معي أطياف معانيَّ فيها كما تلمح معكَ حقيقتي في أطواءِ هذه الصُّورة .

ما أكثر ما أرجوه منك اليوم وما أكثر ما أرجوك له غداً .

وسلمت قيس .

« ليلى »



وحى الصورة

من قيس الى ليلى

- ٩ -

ليلاى :

هذه صورتك أرانى فيها كأننى ظل فى غدير صاف يسكن حتى يظن أنه رسب فيه ، ويرف حتى يظن أنه طفا عليه ، وما رسب الظل ولا طفا ، ولكنه ذهب فى موضعه من الغدير .

وأنظر اليها كأننى أبحث فى أطواء هذا الخيال عن موضع حقيقتى من الحقيقة التى يمثلها ، فيؤدى إلى أن فيك وحدك تين الحقيقتين كما أن فى كلمة الشهادة شطريها معا .

ثم أملأ نظرى منها فكأننى أغيب عن نفسى فى أفق جمال سحرى أنت فيه على مده واستدارته مل‌ء أقطاره الأربعة ،بل كأننى أطلع من حسى على مصور روحانى أجتلى فيه الجنة بأوضاع نعيمها ، كما ينظر من يطلع على مصور حسى فيرى فيه الدنيا أو ناحية منها بأوضاع طبيعتها .

ثم أملأ نظرى فكأن تيارا مغنطيسيا فيه قوة جذب عنصره كله ،

ينبعثُ منها أقوى ما كان تيارٌ لينصبَّ في نفسي أضعفَ ما كانت نفسٌ للحبِّ ، وما ينصبُّ إلاّ قويٌّ كلّ قوة منها تنساب في إنسانيّتي حبًّا يتلهب ، فكأن كل نظرة منّي اليك من وراء صورتك تحوزُ لي منك شكلاً جميلاً جمالاً مطلقًا ، وكأنني من هذه الأشكالِ التي أبدعتها الهندسة الالهيّة لتتعاقب على نفسي من نظراتي في صورتك ، بأزاء ذات هي بجمالها تتعدّد. لأنها بجمالها تتوحّد .

فاني لأتملاّ من صورتك فاحبُّك عودًا على بدء ، ثم أتملاّ فأحبُّك بدءًا على عود ، دواليكِ بدءا وعودا كلما نظرت في صورتك المنشورةِ أمامي ، أو صورتك المطوّية في حسّي ، حتى كأنني اليومَ عرفتك أولَ ما عرفتك ، ساعةَ ترسّلتْ من عينيك المنكسرتين أولُ موجةٍ سحرية في نظرة حائرة كانت كأنها استفهامٌ بقلبك عنّي ، وعرَض قلبي لهذه الموجة فغمرته ، فكان الجواب الذي انطوى في الاستفهام . . . ويالها نظرةً حائرةً وجدت عليها هداي وما زلت أجدُ حتّى وجدتني فيك آخرا .

ولست أكذبك إذا قلت لك إني ما نظرتُ إلى إحدى الصورتين مرة إلا شعرت أن حياتي تحوّلتْ معك وما تزال ، فقد جمع لي الجمال الألهيّ

فيك كما جُمعَ لك الحبُّ القدسيُّ فيّ، والإنسانية تفتن بالجمال أبدًا لتفتتن بالحب أبدًا .

إنى لأنظر فى صورتك فأتخيلها تنظر إلىّ موحيةً فى كل نظرةٍ معنى بكرا، وأتخيّلك من وراء هذه النظرات جميعا، وقد رفّتْ عليها ظلال نفسك، فى كلّ نظرة معنى يخفُّ لأن عليها ظلا يرفُّ.

فمن نظرةٍ واجمةٍ كأن فيها بغتةً واقعةً من قدرٍ يقعُ، فلو لم تكن فى عينيكِ لما كانت إلاّ فى عينى غزالةٍ حرّت عليها كبدها من غُلةِ الظمأ، وبصُرت بالوردِ فطغت عليها غُلتُها، حتى إذا كادت، رأت على الوردِ خيالَ صيادٍ يترقّب غِرتها، فارتدّت تعدو خطفَ البرقِ ومع غُلتها التى طغت حذرها الذى يطغى .

ومن نظرةٍ حائرةٍ كأنها رَوْحة أو جيئةٌ بين فكرين لا يثبت أحدهما إلا بانتفاء الآخر، وأحسبها تردُّدا بين أن تُسرّى إلىّ، وأن تكتمى عنى، فمن وراءِ هذه النظرةِ الحائرةِ خاطرٌ قوىٌّ يلوح فى كرّةٍ ويخفى فى أخرى .

ومن نظرة تجنٌّ فى نسقٍ مبتكر من التجنّى، لأن فيها دلالَ التحكم الجميل على إذعان الهوى الرقيق، وهى لم تكن كذلك إلاّ لأنّ فيها

قهرَ الجمالِ المتألِّه الذى يستعبد برحمته كما يستعبد بقسوته .

ومن نظرةٍ كأنَّ فى زهوها تفسيرا لسرّ اللمحة التى تتضوّأ فيك من الجمال الأزلىّ فتدع من يفهم ، يفهم أن مع الرُّوح شيئا أكبر من الرُّوح وأسمى .

ومن نظرة يالها نظرةً لأن فيها من دلالك فتنةً تتخايل وتتفتَّر ، كأنها تشعرنى أن عاطفتى تعانق عاطفتك فى الشُّعاع الذى يترسَّل الى ما وراءَ عينيك مما وراء عينىّ .

ومن نظرةٍ تقع فى إيجاز القصر مثلا أعلى ، حتى لو تمثّلت بلاغتها لما كانت إلا تحيّة هوى على مرأى من رقيبٍ جعلها حذر الرقيب إيماءً بتحية .

ومن نظرةٍ تبدو جدّتها لمحةً فى لمحة ، كأنها تقول لى إن كلَّ شىء فى هذه الدنيا يبلى وينتهى إلا الحبّ ، فانه يتنضّر ويبدأ أبدا ، وهو من ذلك لا يبلى ولا ينتهى .

ومن نظرة فاترة ضعيفةٍ كأنها تنبعث من فتورٍ وضعفٍ ، على حين لاضعفَ ولا فتور ، وإنما هو الجمال الألهىُّ يتعرّف فى مظهرٍ من التنكر، ليتكبّر فى أسلوبٍ من التواضع ، فما تضعف إنسانة ولا تفتر

إلاّ لتقوى بضعفها وفتورها ، ومن ثمّ تبدو النظرة ضعيفة ضعيفة ، ليكون أثرها قويًّا قويًّا ، كالشرارة التى تتطاير ذرةً مضيئةً ثم لا تقع حيث تقع الاّ نارًا تتضرّم .

ومن نظرةٍ بين الرضا والغضبِ ، لأنها عتبٌ على القدرِ ، فهى تقوى فى لطف وكأنها بانكسارها تقول للقدر إنك أسرفت فى التفريق بين شخصىّ ، فلا يزال أحدهما فىّ ولا يزال الآخر فيه .

ومن نظرةٍ تعتزُّ وتتخايل ، حتى لو لبس معناها صيغة لكانت أمرا مؤكّدًا . . . وانك بهذه الصيغة الملكية لتأمرين أمرين ينقض أحدهما الآخر ، على ألاّ يكون مع ذلك إلاّ ما أمرت ؛ فانك تقولين لحقيقتى التى فنيتْ فى حقيقتك : احيَ فى حيّزِك كلّ ساعةٍ مرة ، لتموتى فى حيّزى كلّ ساعة مرة ، فهى لذلك تستردُّ نفسها منك أبدًا ، لترتدّ بنفسها اليك أبدًا ، فهنيئا لك هذا الأذعان المطلق لسلطتك المطلقةِ ، الى آخر مدّى من الأطلاق ، على أكبرىّ وأصغرىّ جميعا.

ومن نظرةٍ دقّتْ وتعسّرتْ حتى كأنها لغزٌ تمتحن به قوّتك ضعفى ؛ فانى لأجتهدُ فى حلّه وكأنى أجتهدُ فى تعقيده ، وكلما ظننتنى

انتهيت إلى آخر الحلّ رأيتني عند أول العقد، فكأنني إذ ابحث في الفرض الذي أفرضه عن أول اللغز وآخره أدور في حلقة مفرغة لأبحث عن طرفيها المفقودين ! فقد عييت بمعاني هذه النظرة لأنها تشابهت عليّ حتى لا أدري أهي نظرة شعرية تصعـــد إلى السماء لتهبط منهـا بفكرة سماوية ؟ أم هي لمحة من الجمال الأزلي تتجلّى في عيني إنسانة لتقول ان الحبّ يجعل الانسانية ملكية؟ أم هي تجلٍّ روحانيٌّ أفهم منه أن النظرات هي التي تعبّر عن نفسها بنفسها ، وأن كلّ ما جئت به في وصفها انما هو تعبير عن تعبير ، وإني إذ أُحاول وصفها بقلبي كما هي ، كمن يواجه بمرآةٍ صغيرة غديرا يتمثل فيه القمر فيزعم بعدئذ أن في مرآته الهالة التي يطلُعُ فيها القمر . . .

هذه صورتك بين يديّ ، وهذه معانيها مصورةً بين يديك كما وعيتها .

فهل بلغت منها ما بلغتِ من صريع حبك ؟

(قيس)

الذكـــرى

من ليلى الى قيس

- ١٠ -

قيس :

«قيسى» . وليس سوى «قيسى» دعاء فمى .

أجل ، « قيسى » هو دعاء ليـلاك كلما طواها الليل ، فانطوت منه ومن ويلها عليك ، فى ليلـين ؛ لا أشكو اليك أننى وشملى جميع كأننى من قلق الوحدة فى قفر ، فانى من طيفك الذى ملأ علىّ أفق كلـّه ، كأننى من سكينة الأنس فى جنة .

فهل ترى القلق والسكينة إذ يتعاقبان على النفس السابحة فى أفق الحب لتشقى وتسعد ، صورةً من نظام الفقد والتعويض ، الذى يرد على المـادة الانسانية فتبلى بأحدهما لتتجدّد بالآخر ؟

إنى لأهتف باسمك فى حلم يقظتى ، وكلُّ هتفة كأنهـا بمعناها السحرىّ المستتر فى صمتها ، صورة سنةٍ كونية تعمل فى جهة من الكون عملها دون أن يرى كيف تعمل ، فإنى لأحسُّ كلما هتفت ، أن

لحروف اسمك ذاتيةً علويةً تذهب فى نفسى ، لتذهب بها صعدا فى جوّ الذكريات، ذلك الجو الذى ارتسم فيه من شبابينا صور تامل كين ، ثم أرجع الى نفسى كما تطرف العين لليقظة من سِنة مرّت منىّ وأخيلةً وأحلاماً حسانا ؛ فانى ذكرت إذ كنا معاعشية الوداع ، وقد وقع فى قرب مابينى وبينك ، ذلك الطائر الجزِع الذى سرى معنى الوهن فى مادّة قوته ، فقد نشر جناحيه وطفق يضرب بهما الهواء مترفقا ، ولكنه على ذلك لم يبرح موضعه ، لأن شركا كان قد عزّ جناحيه وكاد يحتويه كلّه ، ولكن أجله أفلتهما داميين ، فقلت فى نفسى إن فى جناحى الطائر خفّته وقوّته ولكنّ فى جناحى هذا المسكين ثقله وضعفه ، ثم أخذتنى حالة كنت فيها كأنى أطلُّ من يومى على غيب من غيوب غدى ، فقد كشف لى من وهن هذا الطائر وتهافته فى تلك الساعة ، عما كان من أمرى كله بعدئذ .

ومن رحمة الله بالنفس التى صفت وشفّت أن يتدانى لها ما كتب عليها من قدرٍ أو تستشرف له وهو بعد قدرٌ ، فتلمُّ عليه خيالا قبل أن يلمّ بها حقيقة ، حتى لا يتضاعف عليها بالبغتة ، ومن ثم لا يكون حين يقع إلاّ ما هو فى نفسه ، فواهًا لى إنسانة واهنة كأنها طائر دَمِىَ جناحاه من حزّ الشرك ، وواهاله طائراً واهناً متهافتاً ، كأنه

في صدره قلب إنسانة يموت عليها في منفى !

ثم ذكرتُ إذ رأيتك لأول مرة فقال لى قلبى « هذا » وقالت لك عيناك « هذه » وقال الحبُّ لعشيرتنا « هذان » وسكت . . فبقى موضع الخبر خلواً ليكتبه قدر آخرَ ، وإنه ليكتبه رواية بمناظرها وفصولها هى رواية الانسانية لأن مادتها من معانى الحب .

ثم ذكرتُ إذ ما زحتك منذ سنتين بالهجر فترةً ، والتقينا فقلت لى وقلت لك ، وآه لما جرى فى مسمعينا ساعةَ التقينا بعد ذلك ، فقد صدق كلٌّ مناصاحبه حتى كأن قلبه كان هو الذى ينطق من بين شفتيه .

قلت لى أسرفتِ ليلى فى هذا الدَّلّ الحجازىّ ودل الحجازيات مضرب المثل فى بابه ، فقلت لك إنه من غزلك اليمانى ، وأكثر شعر اليمانين من عنصر الغزل ، ثم قلت لى وقلت لك ، ولم يكن منا من قبل ولا من بعد ، سوى اثنين ترقّى كل منهما ما ترقّى حتى عاد ملكا أو أكبر من ملك ، وكانت خاتمة الحديث بيننا أن مزحة الهجر حين تخرُج من جِدّ الحبّ ، لا تكون الا حباً جداً فى بعض صوره ؛ كما يقول اللغوىُّ حين تخرج له كلمة من كلمة

هـذه لغـة فى تلك . . . .

ويحى عليك قيسى ، ولا ويح لليـلاك منك إلا أن تقولها وما أظنك تقولها ، أى ذنب للدّهر عندى فهو يأخذنى به هذا الأخذ العنيف إلاّ أن يكون الحبّ الذى جعل إنسانيتى وإنسانيتك ما هما . وهو ذنب لعمرى لا أعتذ رمنه ، ولا أتمحّل له ، ولا أداجى فيه ؛ فانه هو الحبُّ لا خيارلأحدٍ عليه إذْ لا إرادةمعه ؛ ولا صبرَ معه إذْ لاقرار عليه ، ولا رأى فيه إذْ لا عقل معه ؛ وإن كـان فيه أسمى معانى الانسانية .

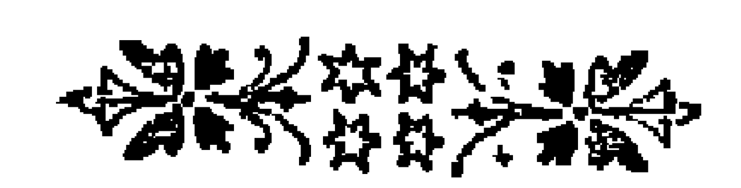
لقد ذكرت وذكرت وآهٍ لما تجدُّ لى الذكريات ، فانها كما يقول ثانى المتنبيين وإن شئت فأولهما شوقى بك بلغة الشعر هى « صدى السنين الحاكى » أو هى كما أقول بلغة الفلسفة :رجعات بالفكر الى المعالم القائمة على مدّ المسافة الزمانية المسماة بالعمر ، وكل معلم منها إذ ينتهى الى آخر ، خيال لبعض الحياة وهى تذهب فى بعض ، وقد طُبعت كلُّـها بطابع النار الالهية المقدّسة التى جعلتها غير ما كـانت ، منذ جعلتنى وإياك غـير ما كـنا :

إنى لأرجع إلى هذه الذكريات التى يبعث بعضها بعضا ، فيرفُّ حولى من كل ذكرى طيف جميل ، وكأنها تتنفس على قلبى الصديان ندًى و نسيما

وعطراً ، وكأنها هى صور المعانى الشعرية الجميلة فى قصيدة العمر لأنى أحسها ترتد الى قلبي لحنا موسيقيا يجيب بعضه بعضا وإن كانت التتمة لم توقع بعد . . .

أجل ؛ قيس هى التتمة التى ارجوها وتخافها ، والرجاء والخوف هما فى الحب ما هما فى العبادة ، فما أشبه الحب فى روحانيته بالعبادة فى قدسيتها ، لأن كليهما سمو بالإنسان فوق المادة ، ثم سمو من مرتبة الفوق الى القدس الأعلى .

قيس ! قيس ! سلمت ، قيس « ليلى »



عودة الذكرى

من ليلى الى قيس

- ١١ -

قيسى :

حضرتنى فى هذه العشيّة حاضرةٌ من الذّكرى رجعتنى الى أول مرة التقينا فيها على قَدَر ، بعد أن فرّق بينى وبينك القَدر فترةً لا أحسبها على طولها من عمرى الذى بدأ فيك بعدئذ لينتهى لا كما بدأ ، إلاّ كما يحسب الميقاتى الفجرَ الكاذب من الليلة المقمرة ، وما تكون هذه الفترةُ من اليوم فى اليوم الا ما يكون بعض الكلام فى الكلام فضولا ، أو لغوا مرذولا ، ولست تعرف قدر شىء على حالةٍ بعينها إلا إذا اعتبرته على حالة أخرى .

فقدذكرتُ إذ أدنت مكانى من مكانك صلتان ؛ إحداهما إنسانيةٌ تجرى فى دمى ودمك كليهما بالوراثة ، فان بينى وبينك زماماً موصولاً من رحمٍ موصولة ، والأخرى الهيّنة لا رأى لى ولا لك فيها لأنها من الحبّ الذى هو تحنان دم الى دم ، فهى آكد وأوثق وأبقى .

أجل ، قيس ، لقد التقينا بعد فرقة كانت اغترابا لكلٍّ منا عن وطنه القلبي ، فقد أحسَّ كلانا أنه لم يكن كلاًّ مكتملاً من قبل ، بل كان بعضا ينتظر بعضه الآخر لأن به تمامه ، فلما توافينا لم تكن منا فى ذلك المكان سوى وحدة تامة فى اثنتين ، وحقيقة فَردة فى صورتين ، فكانت التفاتتى إليك فاصلا تاريخيا بين شطرى عمرى .

وكانت التفاتتك إلىّ نفيا لماضى الشطرين وإثباتا لحاضرهما .

ثم كانت نظرتى اليك فكرةً فلسفيةً بدت فى عينىّ لمحات .

وكانت نظرتك إلىّ فى لغة الحبّ أبدع نسق من التعبير عن أجلّ ما يمكن أن يستسرّ فى قلبٍ لقلبٍ بأدقّ ما يمكن أن يستعلن فى نظرٍ لنظرٍ .

وساد بيننا الصَمت هنيهة فلم ينطق أحدٌ منا بادئا لأن نفسينا أفعمتا معانى جساما ، كأن ما يبعث النُطق هو الذى يبعث الصمت حينا ، وما أنكر أننا تكلّمنا وتبسّطنا فى الكلام ، وذهبنا فيه كلّ مذهب ، وكانت اللغة التى تكلمنا بها لغة أول إنسانين ، فكان الكلام بيننا نظرة تردُ على نظرة سؤالا . والتفاتة ترتدُ إلى التفاتة جوابا .

لقد أسرفنا فى الكلام من حيث أسرفنا فى الصمت، إذ كانت نفسى

ونفسك تتهامسان وتتباثان وتتشاكيان وكانت نجواهما من وراء ماديتنا الأنسانيتين .

ولقد تعاتبتا على القطيعة ، فوقع عتب كل منهما من الأخرى كما يقع الندى من أوراق الوردة المتفتحة فى كمها ، لتصحو على نسمات الفجر ، وتنضّر فى أشعّة الضحى ، وتبوح بما استكتمتها الجنة من سر الشذى .

ثم تكاشفتا بأرق أسلوب من التكاتم ، فأفضت كلٌ منهما برسالتها وأنصتت لها الأخرى ، وحصّلت الرسالتين كلتيهما كلمتان ثنتان همست إحداهما فى سريرتك وكانت . . . وكانت كلمتى « قيس » وهمست الأخرى فى سريرتى وكانت . . . . وكانت كلمتك « ليلى » ومرّت بنا فترةٌ لم تكن من الزمن إلا كما تكون الفلتة العجيبة من الطبيعة فقد تماسّت نفسانا وتعانقتا ، ثم تعانقتا حتى تمازجتا .

ولقد كانت تلك الفترة، يا قيس ، هى الفترة التى أفلتت من عمرينا فى أطواء الزمن ، وكان كلٌ منا يجهد ما يجهد على حدة ليجدها .

بل لا أحسب تلك الفترة لفرط طيبها إلا أنها كانت أجمل أحلام يقظتى ، فقد صعدت منها أفقا كأنه مسحور يمكن فيه المستحيل إذ

رأيتُ فيها حقيقةً ما كنت أراه خيالاً ، وتمّ لى فيها على ما كنت أتمنى ما كنت أظن تمامه محالا ، وفى تلك الساعة أدركت أن النفس وهى بعدُ فى دنياها ربما أسرى بها الى جنتها على طرف الخيال فقرّت فيها لحظةً لتجد فى جمال ما تأخّر من حظّها عزاءها عن سوء ما تقدم منه .

وكان شعورى آنئذ شعور من أخذت من مأمنها ، وملك عليها أمرها حتى لا خيارَ لها عليه ، فان نظرتك الساكنةَ قد اقتحمت على نفسى من حذرها أقوى ما كانت نفس حذراً ، ولم تلبث أن انسابت فى إنسانى جاذبية اليك حتى كأن فيها قوةً من القدر الذى يقدر لا ليغالَب ولكن ليقابل بالرضا والأذعان .

وكان الشعورُ الذى ملك قلبى وقلبك فى تلك الساعة : قد جعل الجوّ الذى حوانا جوا موسيقيا صرفا ، فقد استحالت فيه الخطرات نغمات ، واجتمعت فيه النغمات لحنا سماويا نسم على قلبين جمع الله بينهما فلم أعد أدرى أفى صدرك هما . أم فى صدرى كلاهما ؟

ولقد تفتّح لى الكون كلّه ساعة تفتح لى قلبك ، وكان أمامى كأنه موصد، وكنت أمامه كأننى مغمضة العينين ... فكأن فى قلب كلّ محبة كون حبيبها لأن فى قلب كل محبٍّ كون حبيبته .

وجعلتُ أحسُّ هذا الوجودَ الذى هو نفحةٌ من نفحات الله تعالى كما هو فى نفسه وأتذوّق معانيه كما هى فى نفسها ، لأن وجودى الذى كان بمعزِل عنه ، قد اتصل به أدقّ اتصال وأتمّه .

وأخذتُ أعرفُ الدُّنيا على حقيقتها ، وأتألّفها على حقيقتى ، بعد أن كنت أجهلها وأنكر منها وأتنكر لها ، وكأننى أقبلتُ عليها ولكن من دنيا أخرى .

وبدأتُ أجدُ معانىَ إنسانيّتك تتمثّل جنسًا من المعانى فى إنسانى كما يتمثّل الندى والشُّعاع والنسيم فى العود العطِرِ زهرا يروع ويفتن بطيبه وتلوينه ونضرته ، لأن فيه العطر والفنّ والجمال جميعا .

لقد رأيتنى أخلَق فيك خلقا جديدًا وها أنذا أرانى أتحوّل معك .

ذلك من أنك تسلّلت من صحوى ويقظتى وحذَرى إلى نفسى من كلّ مرقاة اليها ، فأصبحتُ وأمسيتُ وما تملك نفسى إلاّ أن تكون معك ، كأنّ فيك معنىً من الزمن الذى يمحو أو يثبت كل شىء أو من كل شىء ، بل كأنّ فيك سرًّا من عمل الزمن نفسه فى كل نفس ، ومن ثم أرانى معك أتحول بارادتى لأنها هى تتحول معى كما تتحوّل الكائنات وهى حقائق المعانى ، والمعانى وهى أخيلة

الـكائنات ، تحولا دائبا لا تثبت معه على حال وإنما تتحول به إلى كـل حال .

تلك أولى ذكرياتي وهي أحبّها اليّ من أنها الأولى ، وإنما كـانت لها هذه العزازة لأنها تاريخ مولدي الحقيقيّ .

وقد خطرتْ على قلبي العشية كما تخطر ذكرى الوطن على قلب غريبةٍ عن وطنها يكاد حنينها يخفّ بها اليه : فهل ترى هذه الغريبة على ذُكر من وطنها ؟

لقد كـانت أول كـلمة نطقت بها وأنت تودّعني منصرفا قولك :

واها لنـا نازحيْ دارٍ يشفُّهمـا حبٌّ على نارِه قلباهما طُبعـا
كانا معا ثم جَدّ البين فاغتربا هل للغريبين عود للديار معا ؟

وهو قول يحلو لي أن أكرره وأن أستعيدَه فهل يحلو لك أن تجيبني متى يرجع الغريبان إلى دارهما ؟

سؤال عنـدك جوابه ، فقل لي قيس متى ؟

« ليلى »

خواطر السهد

من قيس الى ليلى

-١٢-

ليلاى :

أريد لأكتب اليك فتماسّ عاطفتانا فى جو عطرٍ من هذه الرسالة ، ولكنّ معانىّ التى هى صورٌ من تفكيرى لا تزال على شفتىّ همهمة خافتةً لا كلاماً متميزا ، فهى لا تبلغُ أن تتمثّل بأعيانها فى قلمى كتابةً ولكنها تتراءى فى بيانى تخييلا ، إذ كان التعبير الذى أجده فأملكه لا يمثّل المعانى التى أجدها فتملكنى ، فخذى معانىّ كماهى فى تفكيرى . لا كماهى من تعبيرى .

لقد طالت علىّ الليلة الفائتة لا من أنى طويت ما بين طرفيها ساهدا ، ولكن من أن شجونى الساهدة قد طوتنى بين أطراف ثلاثة : من أمسى الذى ذهب منى ، ويومى الذى يذهب بى ، وغدى الذى أذهب فيه ، لأن فى صلتى بك معقِد هذه الأطراف الثلاثة من العمر . فإنى كنت من هذه الشجون كالموفى على الغرق ، تلفّه موجة

عاتية كأن صخبها الثائر ، من مناحة حظه عليه ؛ ورشاشها الطائر ، من غبار حفرة تشق له بين يديه ؛ فواهًا له من إنسان يدلف الى حُفرته وهو بعد فى سياق الموت ، وواهًا لى إنسانا يعتلُّ عليه وجوده فى بعدك عنه حتى ليرى وجوده شكلا ناقصا من العدم يتأدّى الى تمامه ، وكلُّ ما فى الحياة فهو فى نفس المرء ما يتوهّمه أو يعتقده ، ولو كانت الحياة فى نفسها بكلّ ما فيها غير ما يعتقده أو يتوهّمه .

فقد خُيِّل الىّ من طول ليلتى تلك أن إبرتىْ ساعتى لا تسيران على وضعيهما ولكنهما تضطربان فى موضعيهما من هذه الساعة ، التى تقيس بسيرها فى مدار فلكها سير الزمن من حركة هذا الفلك فى مداره ، وما أبطأ سير الزمن على المحبّ الساهد فى وحدته !

ورأيت رقعة السماء على مدّ ما أرى ، صفحةً من الأثير غير محدودة السعة ، وكأنها تنصتُ لتسمع نجوى قلبى لقلبك فى هذه الليلة شجوا وحنيناً وعتبا على القدر مرة وتمنِّيا عليه أخرى ؛ وكنتُ فيما بين ذلك أكادُ أُطلُّ على الغيب ، فان من دأب النفس إذا ضاقت بيومها أن تشرف منه على غدها بخيالها قبل أن يُشرف عليها الغدُ بحقيقته ، رجاة أن تجد مع سؤلها جوابه ، وأظن هذه الصفحة تتسع لنجواى كما تتسع الصّفحة

من الورق لفنّ من اللّحن يجن به جنونا ، فهو فيها رموز وإشارات
وإن كان في النفس كأنه مسةٌ سحريّةٌ تدع النفس كأنما كانت صدئةً
ثم جليت فاستطار فيها الإشراق ، ولكن نجواى تتجدّد مع الزمن فلا
آخر لها لأنه هو لا آخر له .

وخلت هذا القمرَ الذى هو فى الفلك فلكٌ آخر للحب يدور سعدا
ونحسا ، يدّارأُ فى ظل غمامةٍ كأن فيها من همى فهى تثّاقل ولا تتكشّف
وكأن القمر كان يتسمّع علىّ لأنه لا بد فى كل هوى من رقيب . . .

وحسبت اللّيل وهو يتكاثف ولا يسطع فى أثنائه شُعاع ، جُرما
خطيرا ليس معه استغفار ، أو ظلما كبيرا ليس معه أعذار ، فقد جعل
يتدجَّى ولا ينجلى ، كأنه محنة محب تلفُّه من شجونه عاصفة هوجاء .

ورأيت الفجر كأنما مُلِكَ عليه مطلعه ومغيبه كلاهما ، فهو بينهما فى
موضعه لا يدنو ولا ينأى ، وكلُّ شُعاع منه إذ يتعلق بمطالعه فلا يرتدُّ
إليه ، ولا ينبثق منه ، كأنه دمعة محب أطلقها شجوه من مآقيها فى عينيه ولكنّ
بغتة الرقيب حبستها فى مآقيها فهى عالقةٌ بموضعها لا تجمد ولا تسيل .

ولبس الكون الظّلام حتى كأنه فى حداد على الساهدين فيه ،
من محبٍّ لا يغفى لأن شجونه دائبة أبدا فهى لا تغفى .

وبائسٍ يفتنُّ الدهر في الكيدِ له إذ يُطمعه بما يمكن فيما لا يمكن ولا يزال يطمعه .

وعليلٍ تنتضل الحياة والموت في علته ، فهو بها بين أن يحيا وأن يموت .

ومحسنٍ يطلع في غفلات العيون على بيوت المساكين ، فلا يكون فيها مع الفاقة إلا ما يكون العزاء مع المصيبة .

وأمثال هؤلاء الذين يحملون عن الإنسانية آلامها فلا تكون آلامها في أنفسهم إلا فلسفةً ، أو حكمةً ، أو شعراً فيه من الفلسفة والحكمة ، أو إنسانيةً عُليا فيها من هذه جميعا .

ومن ظالمٍ يقهر على الرضا ، ويطمع على ذلك أن يُحبَّ كأن ما يراه ممكنا يمكن أيضا أن يجيئه بمستحيل .

ومترَفٍ يحسب بتأنقه في لذاذاته أنه يشدُّ نفسه ويبنيها ، وهو لو درى يهدُّها ويُرديها .

ومبيِّتٍ يسهر من إغفاء وجدانه ويحسب اللّيل سترا كثيفا عليه فيأثم ولا يتأثم ، وكأنه إذ أمِن أن يُرى أمِن تبعة ما يجني .

ومُرْبٍ يرى في كلِّ نجم خيال سبيكة من الفضّة فيتمنى أن تكون في يده دراهم يستنفد رقمها حساب العدد !

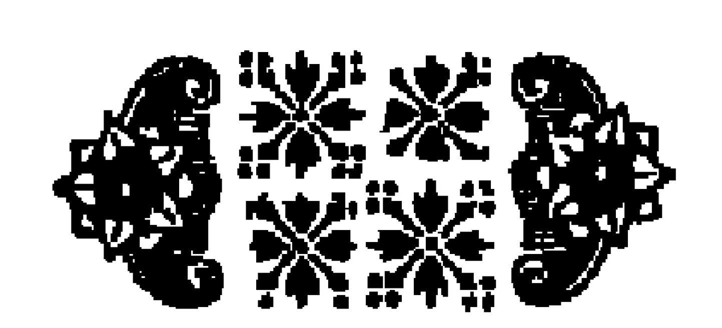
ومن أشباه هؤلاء الذين خُلقوا في الانسانية ليكون عملهم فيها تعليقا على بلائها وتكملةً وغير هؤلاء وهؤلاء.

من خائفٍ وقد أمَّنه القدر مايخاف، وشقيّ يخرج له من شقائه الذي يعرفه نعيمهُ الذي يجهله، ومحرومٍ ولعلَّه لو كُشف عن بصيرته لرأى محنته منحة، ومبتلىً في خاصّة نفسه وربما كانت عافيته في بلائه، فان بعض البلاء بالخوف، والمحنةِ وما شاكل؛ لا يعدو أن يكون تكويننا بأسلوبٍ حكيمٍ يعرف الخاصّة موضع الحكمة الالهية فيه؛ ولا يعرف العامة هذا الموضع، على أنهم اذا عرفوه لم يلبثوا أن يجهلوه.

لقد طالت عليّ ليلتي حتى كأنها أملٌ من إيمان مؤمن يمتدُّ ما بينه وبين السماء؛ فجعلت تارةً أنظر في رسائلك التي لأنها تمثّلك لي في صور يتمثل فيها الجمالُ الذي خُلق فيك فنا إلهيا ليخلق معه الحبّ القدسيّ فيّ على وضع لم يعرفه المحبون من قبلي؛ وتارة أبذل في سهادي من يقين يومي الذي أريد أن أستيقنه، كما يبذل المخمور صحوه ليلةً عسى أن يجد على نور كأسه حلم لحظة، فيذهب الحلم في لحظةٍ ثم لا يقعُ وتذهب الكأس بصحو الحالم ثم لا يصحو.

وهأنذا من سكر حبّك لا أصحو ولست أملك أن أصحو ، لأن في الكأس التي سُقيتها من حبّك معاني من السكر هي من كأسي ، الى دمي ، الى قلبي ، الى موطن العقيدة منه ، الى المستوى الذي أنت فيه من هذا الموطن في قلب المفتون بحبك .

« قيس »



رسالة الحب

من ليلى الى قيس

- ١٣ -

قيسى :

أُحاجيك ما كلمةٌ لا تكون فى القلب كلمةً حتى يكون معناها فى الدّم حادثةً يصغرُ بها ماقبلَها ، ويكبر بها ما بعدها ، ويكون عملها فى الحياة بعدئذ تاريخاً تحورُ به الحياة فإذا هى قطعةٌ من الخلود ؟ إنها كلمة الحب .

الحبُّ نسق عالىٌّ من العبادة بالتفكير .

الحبُّ نزعة إنسانيةٍ الى استكمال حقيقتها .

الحبُّ ولادة معنوية يولدها المحب وكأنه خرج بها الى دنيا أخرى فى هذه الدنيا .

الحبُّ رجعة بالفكر الى أول الخليقة . أو وثبة بالفكر الى كمال الخليقة .

الحبُّ قرابة روحانية ، فهى لذلك فوق قرابة العصب والرحم وآكد منهما مجتمعين .

الحبُّ هو الممكن الذى يأتى بالمستحيل .

* * *

هو طواف إنسانيةٍ بجنة فى الدنيا تتكشّف لها فى إنسانية أخرى .
هو شكلٌ من التنقيح الإلهىّ لجملة الإنسانية .
هو اتّصال موضع السّر من قلبٍ بالموضع الذى يقابله من قلبٍ آخر .
هو شكلٌ من إيمان الإنسانية بجمال الكون، كما أن الإنسانية شكلٌ من إيمان القلب بمبدع الكون فى هذا الجمال .
هو تعبيرٌ إلهىٌّ للانسان بقلبه حين يتصل بقلب آخر ، تعبير له بجاذبية يحسُّها عن سر الجاذبية التى لا يُحسُّها .
هو قدرةٌ معنوية فى المحب يرى بها فى نفسه هذه الدنيا فوق ماهى فى نفسها لأنها تخيل له ماهو فى حقيقتها أسمى ممّا هو فى حقيقته ، وتريه من كل مايرى فيه معنى من الفنّ أو لمحةً من الجمال فنًّا كاملاً أو جمالاً ماثلاً .

* * *

الحبُّ برهان دينىٌّ لأن فيه تمثيلاً لمعنيين من الفناء والخلود .
الحبُّ إدراك الجمال الأزلىّ غير المحدود بصورة من الصور الجميلة المحدودة .
الحبُّ فتح الكون للقلبِ فتحاً يملك به القلب أجمل ما فى الكون .

من المعانى .

الحبُّ نبل المشاعر بَيْدَ أنه أعلى النُّبل .

الحبُّ يخلق فى الفكر حِسًّا يجعل فيه معنى من القدرة على معنى من الخلق والابداع .

الحبُّ أدقُّ أسلوب من الضعف لأجلِّ أسلوب من القوة .

* * *

هو كلام القلب الذى قلما يتكلم به .

هو قدرٌ سماوىٌّ ولكنه لا يجرى مجرى غيره من الأقدار ، فهو يُقدَّر فى صورة جميلة محبوبة لتكون معه الآلام الجميلة المحبوبة .

هو فضيلةٌ لو أنصفت لكانت هى الفضيلة وإن لم تتوسط طرفين ؛ فهو طرف إما أن يصعد الى السماء كاملا كاملا وإما أن يهبط الى الأرض ناقصا ناقصا .

هو . . . ما أدرى أهو إفاضة أنبل مافى الانسانية من المعانى على هذا الكون لتكون فيه جمالا تلبسه مظاهره فتنة وسحرا ؟ أم هو إفاضة لأجمل مافى الكون من مظاهر الفتنة والسحر على هذه الانسانية لتكون فيها شعرا ؟

هو لا يخلق إنسانا ولا إنسانة ولكنه يخلُق من كل حبيبين

إنسانية واحدة .

هو طابع إلهىٌ على القلب يدع القلب كأنما مسّته يد الله .

* * *

الحبُ شكلٌ من فطرة القلب على الدّين ، والدين شكل من فطرته على الحب .

الحبُ يضاعف للمحب حياته لأنه يجعل حقائقها وأخيلتها فى نفسه أسمى ممّا هى فى نفسها وأكبر .

الحبُ اتجاهة الفطرة باللمحة الالهية التى تلمح فيها الى كمالها الفطرىّ .

الحبُ تحقيق روحانى لأسمى معانى الانسانية .

الحبُ بعثٌ فى الدنيا قبل البعث لحياة فيها أسمى من الحياة .

الحبُ مرقاة سماوية تصعد بالمحب ثم تصعد فاذا هو متصل بالجمال الأزلىّ الأعلى نوعا من الاتصال .

الحبُ هو الحبُ ... ومالى أن آتى له بتعريف ولا ذلك بِمَلك أحدٍ إلا أن يزعم أن له قدرة تجمع له أنفاس العِطر كله فى كمّ زهرة واحدة .

وإنما هذه خَطِرات من خاطرى كتبتها كما تلقيتها .

« ليلى »

رسالة الجمال

من قيس إلى ليلى

- ١٤ -

ليلاى :

بين يدى السّاعة رسمك تجول نفسى فيه جولانَهُ فى نفسى، وإنى لأنظر فيه فتُجدّ لى كل نظرة فكرة ،وكل فكرة خطرة ، وكل خطرة معنى،يتأدّى فى إحدى صورتين . فهو يكون أنةً مرسلة أو دمعة مسبلة. ولا أعرف شيئا هو صورة من شىء آخر على اختلافهما كهاتين ؛ فالأنة دمعةٌ أمسكها الطّرف فأرسلها القلب ، والدمعة أنة أمسكها القلب فأرسلها الطّرف ، وكلتاهما فى لغة الحب أسلوبٌ من التعبير .

ولست أحسب أن نظراتى فى رسمك آتتنى تعريف الجمال ، أو خلص منها الخيالى أقربُ تعريفٍ لحقيقته ؛ فأن النجم فى مكانه أبدا ولو أفنى الطّيار عمره فى الصعود اليه . . ولكنها صفات من رسمك تمثّلت فى هذه الكلمات .

الجمالُ توكيد بصورةٍ بديعةٍ لمعنى من قدرة المصوِّر المبدع على التصوير والأبداع .

الجمالُ دعوة لحاسة الأعجاب إذ كان الحبُّ تأمينًا على هذه الدعوة .

الجمالُ شكلٌ تأخذه العين تعبيرا ، وتلقيه بعدئذٍ إلى القلب فيكون فيه تفكيرا .

الجمالُ حالةٌ كأنها سكينة ولكن بإزائها فورة لا تسكن .

الجمالُ لمحة إلهية تتضوأ في ذات فتكون بها بشرا سويا ، أو في معنى فيكون بها معنى سويا .

هو قَدَرٌ منظور ، ينشأ منه قدر مستور .

هو جذبٌ ولكنه ربما خرج عن كونه جذبا إلى أن يكون غصبًا .

هو منحة إلهية واحدة ولكن معها محنتين إنسانيتين ، إحداهما للجميل نفسه لأن ما يسعد به هو بعينه ما يشقى به ، والأخرى للمفتون به لأن ما يشقى به هو بعينه ما يسعد به .

* * *

هو شكلٌ مادّيٌّ أو معنويٌّ يفتن في شكلٍ من المادّة أو المعنى .

الجمالُ خلقٌ يتجدّد بتجدُّد الفكر فيه والنظر إليه .

الجمالُ هو وسيلةٌ فى كائن وهو غاية لكائن آخر .

الجمالُ إحدى حقيقتين تتقابلان فى الأنسانية أبدا وفيهما كلُّ قوتها؛ والحبُّ هو الحقيقة الأخرى .

الجمالُ صورةٌ تتألّه بقدرها ، ليتولّهَ بهاقلب بقدره .

الجمالُ شكلٌ من ألوهيةٍ مخلوقةٍ لأنها تضعف إلاّ عن خلق حب في قلب .

الجمال صورةٌ مصغّرة من الجنة فى إنسانة غير التى خرج بها الأنسان من الجنة وكانت أول وطن له ، ومن ذلك يحب الأنسان هذه الصورة الماثلة أمامه من الجنّة وطنه الأول .

* * *

هو فنٌّ من الهندسة الإلهية ومن ثم يبدو كلُّ وضعٍ من أوضاعه للمفتون به فى صورٍ شتى .

هو قوة أكثر ما تكون روعةً فى ثنتين ، فى الأنوثةِ وهى إيجاز طبيعة صغرى ، وفى الطبيعة وفيها أطناب أنوثة كبرى .

هو شكل يفتن بأسلوبين أحدهما من قبل الجميل نفسه بالمزيّة

الساحرة البادية فيها ، والآخر من قِبَل المفتون به بالمزيّة المسحورة المستترة فيه .

هو نسقٌ من أسلوب الحكيم فى بلاغة الخالق .

هو حُلم النفس فى يقظتها ونومها حتى تجد تعبيره .

هو قوة تأخذ ضعيفة ، ثم تستبدُّ عنيفة ، ولكن بأسلوب غير أسلوب القوة حين تأخذ وتستبدُّ . فهى لا تتكبّر ولكن دلالها فنٌّ من الكبر ؛ ولا تكيد ولكن صدودها شكلٌ من الكيد ؛ ولا تعنف ولا تستبدُّ ولكن هجرانها شكلٌ من العنف والاستبداد ؛ ولا تغتصب ولكن تستلب .

* * *

الجمالُ مثل من الفنّ الالهىّ سما ثم سما حتى كأنه لسموه ليس فى الانسانية . وهو لسموه كأن هذه الانسانية ليست إلا فيه .

الجمالُ أسلوبٌ من تعبير الكون عن صورته بذات لذات أخرى .

الجمالُ ملكيةٌ إذا لم ترتق عالية كانت مادية تهبط سافلة سافلة .

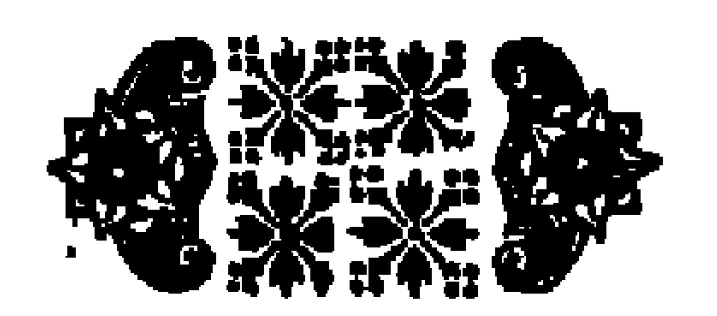
الجمالُ أنفذ أسلوب الى إقناع القلب الجاحد لأنه يحيل جحوده إذعانا . ثم يجعل إذعانه إيمانا .

الجمال وقدة تتضرّم على أنفاس الحبّ .

الجمالُ هو الجمالُ ؛ لا أعرف كلمة تحد ماهيّته ، فهو فى رأيى فوق أن يُعرَّف لأنه أبداً فوق أن يُحدَّ .

فانه ليس كغيره مما يقع تحت الحس فيقدر باعتبار ، والفكر فيه ، والنظر اليه، كلاهما يملك الحسَّ فلا يملك الحسُّ أن يقدره ؛ ولكنى كنت ، وأنا أرى فى رسمك، مأخوذا بجلال ما أرى. ومن ذلك الموصوف بدت لى هذه الصِّفات . وإنما هى الصفات التى ينزِّهها فيك محبك الذى تنزَّهت فيه .

« قيس »



اسقام ام جنون هوى ؟

من ليلى إلى قيس

- ١٥ -

قيسى :

واهًا لى من قلمى فانه يرجف ويترنح فى يدى ، فما يتقارُ ولا يتزن ، ومن ثم لا يسكن إلى موضعه من هذه الرقعة ، حتى كأنه تسرى فيه مع كل مسّة من يدى مسّة من دمى تحرُّ عليه فيرجف بها ، لأن دمى يرجف ويحرُّ علىّ من وعكة هذه الحمى التى رتعت فى سوادى سواد ليال.

فكأن هذا القلم إذ ينتفض معى ، يثبت أنه ثالث أصغرىّ ، وقد كان أداة جامدة فى يدى بعد أن ولد إنسانى فىّ وشبّ وترعرع ، حتى إذا وُلدتْ إنسانيتى فيك ، شعرت أن هذه الأداة تستمدُّ من حسّى حتى كأنها كانت بضعةً ضائعةً منى ثم وجدتها منذ وجدتك. . .

وكانت عصا موسى قبل أن يُؤتى النبوة كما تكون أى عصا فى يد أى إنسان ، فلما أوتى النبوّة ببرهانها المعجز سرت فيها قوة يقينه ؛ فالمعجزة فى نفسه سرُّها ، والعصا فى نفسها سحرُها .

ولكنّ هذه الأداة التى يتنفّس بها قلبى فتخرج أنفاسه كلماتٍ وجملاً ، إنما خلقت معى خلقها الجديد لتخلد فى آثارها فتبقى فيها بعد أن تبلى . . . فأما ليلى فإن فى ولادة إنسانيّتها فيك فناءها لأنها لم تولد فيك بمعنى إلا لتموت بمعنى.

ولقد غمزتُ على دمى هذه الحمى فى فترة لا أحسبها من اللّيل لأن مع الليل سكينته وأحلامه ، ولا من النهار لأن مع النهار قلقه وأكاذيبه التى تجرى مجرى حقائقه أحياناً . . . فما أظن إلا أن مسألة عمرى كانت مطروحة للحلّ فكانت هذه الفترة منه كأنها من الخطأ الحسابى فى حلّ المسألة ، ويستوى فى الخطأ أن يكون بنقصٍ وأن يكون بزيادة .

وها أنذا فى موضعى الذى تنكّر لى من طول ما تعرّف، فقد أخذ كيانه يتغرّب عنى كما أخذ كيانى يتغرّب عنه . حتى ليخيّل إلىّ أنه يتسلّل بى من حيّزه فى هذا المنزل المحصور بين حدوده الأربعة ، إلى جهة مجهولة من قبر ينتهى كل حدٍّ منه إلى الآخرة ، ومن ثم لا تعرف لحدٍّ منه آخراً ينتهى إليه . فإن القبر هو الجهة السلبية فى هذا الوجود فهى لا تلبس الزمن إلا بنوعٍ من الاعتبار ، ومن ذلك لا يتميّز فيها

ليلٌ من نهارٍ إلا اعتبارا .

ولقد عنفت عليّ هذه الوافدة وملكت دمي كما تملك المعضلة من يرى في حلّها ما بقي يرى في الحلّ ، ولا حلّ إلا أن يدعها كما هي ، أو يبقى رأيه فيها كما هو ، لأنه كلما حلّ منها بأسلوب تعقّدت عليه باسلوب .

ولست أرى هذه الوافدة إلا أصغر محنتيْ إنسانيّتي إذ كان الحب أكبرهما ، فهما قدران متى قضى أحدهما في السماء بدأ في الدم ، ومتى بدأ تتالى وبعث بعضه بعضًا ؛ غير أن محنة السقم هي يقظة للضعف في المادّة ، وهي يقظة تطول أو تقصر لنوم ، فأما محنة الحبّ فهي يقظة للقوة في الرُّوح وهي يقظة لا غفلة معها أبدا ، لأنها لهفة تهدر ثم تهدر ، فلا تسكن ولا تتطأمن ، وهي كالتيار إذا نفضته العاصفة نفضتها القوّية زخر وتدفّع ، ثم طغى حتى لا يمسكه شيء إلا كان كأنه يُرسله .

وقد وقذتني العلة حتى رأيتني أخرج من يقظتي لا الى نوم ، ولكن الى حالةٍ تشبه أن تكون استهواء نفسانيا ، فلا هي يقظة ولا هي نوم ، وما أدرى أكنتَ في طريقك اليّ أم كنتُ في طريق اليك ، ولكن الذي أدريه أن نفسي ونفسك اتصلتا اتصالا قويا حتى كأنهما كانتا

من هذه العلّة على موعد لقاء : فهل كنتُ آتشذ أستدنيك بالمنى مستنجدة قوتك لضعفى إذ كان أحد شطرى الانسانية ضعفا كلّه فهو يستنجد ليعتصم ، وشطرها الآخر قوة كله فهو ينجد ليعصم ؟

أم أنى وقد خفتُ عليك من علتى أكثر مما خفت على نفسى ، كنت أستدنى طيفك بالمخيّلة لأستوحيه القوة على مغالبة العلة ، شأن السارى الخائف إذ يهتف باسم البطل الذى يكبره كأنه يأنس به ويستوحيه الشجاعة ؟

أم كان عقلى الباطن يسيطر على حسىّ فطفوت عليهما حتى لحت لى من خلالهما ؟

أجل ؛ قيس ، إنه كما يقع المدد القوىُّ للضعيف المدبر فى الموقعة الحاسمة فيكر به كرةً كأنما تقذف به الى موطن الظفر ، اذ لا يلبث أن يكسب الموقعة وكان خصمه يحسبه فى الموقعة من كسبها ، تهدّى الىّ طيفك وتحنىّ علىّ أرقّ ما كان رقةً ، وهفا إلىّ أحنَّ ما كان حنانًا وكأنما مسح علىّ مسحة ارتدّت بها هزيمتى للعلة ظفرا بها .

فقد خفّت عنى هذه الفورة التى كان دمى منها فى جلدى كأنه فى مرجل يغلى ، وجعلت أرجع لنفسى رُويدا رُويدا حتى وجدتنى

حيث كنت فقدتني ، ولكن لم تلبث هذه المعاني النارية أن عادت تستطيرُ في دمي كأنها حريق يتضرَّم ولا يطفأ ، فايقنتُ أن العناية الآلهية أرادت أن تُرى طيفك عِيانا من دمي دليلا على أن حبك فيه كأنه من مادته ، وتريني بالحسّ أن ما كابدته من هذه الحمى إنما كان ترويحًا عني ممّا أكابد من حبك ؛ فان الانسانة في مرضها تألم وتبكي لكن لا بالأنين الذي معه دمع لأنه لا بد للشعر من قافية . . . فانها في حبها تبكي وتألم بالحنين الذي هو نسق التعبير عن المعاني العلوية ولا بدّ مع الدعوى من دليل على صحتها . . .
وإني لأحسُّ أن الحمى أخذت تكرُّ عليّ كرة أخرى ، فهذه بادرة نوبتها تسري فيّ حتى لا قرار لسوادي في حيِّزه لأنه لا قرار على نار ، فهل يسعدني طيفك بدءا على عَوْد حين تنوبني نوبتها عَوْدا على بدء ؟ فان طيفك هو النعمة التي تخرج لي من هذه النقمة . وأحببْ إليّ بالعلة إذا جاءتني منك بالطبيب أو من طيفك بالعائد ؟

ألا ما أحوجني الساعة الى طبيبي وعائدي معا ، فهأنذا أتصبب عرقا ، وقد بُدئت وحيل بيني وبين إتمام رسالتي فمعانيّ التي كانت في قلبي لا يزال قلبي يهمهم بها فرحماك . . . قيس رُحماك . . . « ليلى »

لذّة الألم

من قيس الى ليلى

- ١٦ -

ليلاى :

ما رأيتِنى طائر القلب من قلق ، كما رأيتِنى فى الفترة التى تقدمتْ كتابك إلىّ ، فقد تمثَّلك قلبى فى مرآته من قبلُ كما تمثَّلتِ فى كتابك من بعد ، فكنتِ فى كلتا المرآتين حقيقةً واحدةً تصف نفسها فى صورتين .

فإلاّ تكن إلمامة طيفك بى فى فترةٍ من فترات الوحى ، هى التى أرتنى من سُقمك ما وصفتِ ، فان إنسانيتك التى صعدت الى حدّها الأعلى هى التى أشرقت علىّ من أفقها ، فرأيتك تتوجّعين من وصب.. وأدع المضاف اليه تفاديًا من هذه اللهفة التى تتلهّب بين جنبىّ ، حين أتصوّر تتمّة الاضافة ، وأكتب كلمة الحمى ، لأنه لا يلبث معناها أن يسرى فى حسى رِعدة واصبةً ، فلم يعد هذا المعنى صورةً تُتخيّل ، وإنما هو حرّة على العصب الذى هو مناط الحسّ ، كأن اللفظ الذى

نرهبه ممن رهبة معناه ، لا يكون في المخيّلة معنى متصوّرا ، بل فعلاً ماضيًا على حكمه المطلق في هذا الجهاز ، كلفظ البين عندمن فُجع به ، فهو في معناه احتضار المفجوع به . .

فيا لهفًا عليك وأنت تشتكين السقم ، لهفًا ينتقل بهأضعافما في مادّتك من سقم الى رُوحي ، فأنا مما تشتكين صريع ألم برْحٍ تكاد كلُّ غمرةٍ منه تنسخ كلَّ معنىً مني ، لأنه ألم روحانيٌّ دائب لا يسكن ولا يفتُرُ ، بل يتضاعف ويطغى .

أجلْ ، إن الانسان لتألم إنسانيّته لمن ابتلى في ذاته ، وما امتُحن امرؤٌ ببليّة إلاامتُحن بهذه البلية وزنُ الانسانية أومعدنها فيمن معه ؛ والانسانية أول جامعةٍ في هذا الكون لأن تاريخها بدأ في أول إنسانين كانا ، وكان انبعاث الألم في أحدهما ابتعاثا للرحمة في الآخر ؛ وهي آخر جامعة لأن تاريخها ينتهي في آخر إنسانين يرتفع بذهابهما الألم والرحمة معا من هذه الأرض ، وهي في الانسان لأنها في القلب ، وهي في القلب لأنها في الدّم ، وهي الأصل في العقيدة ، لأن كلّ عقيدة أخرى إنما تجري في الدم وتطّرد فيه اطّرادها .

ولكني آلم لك بانسانيّتي ألما أخفُّ ما فيه أنه لا يخفُّ لحظة

إلا ليعنف ثم يعنف ، حتى ليُذهب بى فلا أدرى من أنه يُذهب بى ،
وحتى لا أرانى من الزمن إلا فى الموجة الثائرة من بحره ، ولا من
رقعة الدنيا إلا حيث يضرب بسارٍ فى مفازة لا معلم فيها ، فكلما تقدم مرحلةً
ليبلغ آخرها رأى على مد البصر من ترامى أطرافها الى ما وراء الأفق
أنه تأخر مرحلة ، ومن ثم يكون يقينه أنه هالك لا محالة .

وآلم لك بروحى وكأننى بما تحز فىّ هذه الآلام أنفى بها عن إنسانيّتى
ضعفها ، ثم أرتفع بها الى حالةٍ ملكيةٍ يرقى بها جزئى المعنوى ثم يرقى ،
فما أشبه هذه الآلام فى الهندسة المعنوية بالقوى الرافعة فى الهندسةِ
الآلية ، فإن كل ألم منها إذ يحز على النفس ، يعمل فيها بمعنىً من
عمل النار فى تمحيص السبيكة حتى تخرج من النار وليس شىء منها أنفس من
شىء ، لأنها تبرح كلها ، وكأننا بآلامنا حين تخلق فى أنفسنا ، نُخلق معها خلقاً
جديداً ، وحين تحز فينا هذه الآلام وتبرح لا تكون إلا كالصوت الذى
يرد علينا من غور بعيد بعيدٍ ، ينبه الانسان الى أنه إن لم يسمُ به الألم نزلت
به اللذة فضربت بعضه ببعض ، وتركته لما به ، وهو يدرى أو لا يدرى .

وألمى لك ألم فيه المعانى النبيلة من الإنسانية والحكمة والفلسفة
جميعا ، فهو نسق عالٍ فى تهذيب حقيقة المرء إذا كانت حقيقته تُحسن الفهم

لهذا النسق من التهذيب ، لأن به يتحوّل الألم فى المصاب به ألمعية ، وتحور الألمعية فى الشاعر عبقرية ، ويعودُ الحبُّ العبقرىُّ بسبيلٍ من الألوهية .

أما أن فى الألم معنىً نبيلاً من الإنسانية فهذا من أنه بموقعه من المعنى الإنسانىّ ، وعمله فى هذا المعنى ، يشبه أن يكون منَعةً واقيةً لعوُد الانسانية فيه أن يذوى فى منبته ، ومن ثَم لا يعقم بعد؛ كما يشبه فى موقعه من مادة الإنسانية أن يكون لقاحا يضعف الحيوانية فى جهات حسّه حتى لا تفور به نزوة ، ولا تثور به شهوة ، فاذا تلك القوة الحيوية تجدّد معانيه ، وكانت حيوانيةً تبلى مادته فيه ، وعلى ذلك لا يدع الألم هذا الانسان حين يعرف مواقع الحكمة الإلهية فيه حتى يكون فى دنياه بأضعف ما فيه أقوى ما فيها .

وأما أن فى الألم معنىً نبيلاً من الحكمة ، فهذا من أنه ينفى عن المرء وهمه الذى يريه الدُّنيا غير ما هى ، فيكون فيها غير ما هو ؛ لأنه يريه فى موضعه منها دنيا مستقلّة يخلقها له وهمه مصبوغة بألوانٍ محبَّبةٍ إليه من أهوائه ومطامعه وشهواته ، وفى هذه الدنيا التى تسفل به ، يفقد حقيقته التى كان حرِيًّا أن يعلو بها ، ومن ذلك كان الألم رجعة بالانسان الذى فقد حقيقته الى هذه الحقيقة التى فقدها .

وأما أن فى الألم معنىً نبيلا من الفلسفة ، فهذا من أنه يدع المرء وفى عينيه حين ينظر فى هذا الكون شُعاعٌ إلهىٌّ يعصمه أن يخطىء حين ينظر ، فلا ينظر إلاّ الحقيقة خالصةً من المجاز الذى هو خيال الصنعة ، ومن الخيال الذى هو مجاز الطّبع ، ولعمرى إن يد الله حين تمسُّ دم امرىء بالألم الرفيق ، إنما تمسُّ قلبه بالفلسفة الرقيقة ، فلا تكون خفقاته بعد ئذ إلاّ كالمنبهة له الى أنه خلق ليكون من البنية التى هو فيها كالمحراب من المسجد الذى هو فيه .

بنفسى ودنياى ، أنت ليلاى ، وانى لأ كبرك عن الفدى ، ولو أنه النفس والدنيا معا ، ومانفسى وقد اعتلّت علىّ دنياى فيك ؟ ثم مادنياى وقد اعتلّت علىّ نفسى فيها ؟ فأنت أنت النفس والدنيا كلتاهما ؟

ألا إن سقمك قد ألقانى فى أضيق سجنين من الهمّ والألم ، وأوثقنى منهما وثاقين...لا . لا . فقد خرجتُ من كلا سجنىّ وسقط عنى الوثاقان معا بمعجزةٍ إلهية جرتْ فى كلمةٍ باسمةٍ على شفتىْ رسولك البشير بصحتك ، فقد استرددت فيك أملى ونفسى ، وهأنذا أقبل على الوجود مرّة أخرى ولكن فى سياق آخر ، لحظتك عناية الله ولا خلا منك لحظةً حسُّ المفتون بحبك .

« قيس »

آمنتُ فهل آمنتِ؟

من قيس الى ليلى

- ١٧ -

ليلاى :

كنت بين يديكِ فى كتابك وكتابك بين يدىَّ ، فقد ظفرت به بك فيه ولكن . . . كما يظفر المعدم بغنى عمره حين يقدر هذا الغنى بدلالة رقمه الحسابىِّ عليه ، قبل أن يصير الغنى نفسه اليه ، ولا عجب فإن نفس المحبِّ لا تنفكُّ تسمو به من الخيال الذى وجده إلى الحقيقة التى لا يجدها ليجدها .

وقد كنتُ قبل أن يجيئنى كتابك كأننى أحيا غير حياتى ، وكأنما كانت تحتوينى غير جهاتى ، فلما أشرف علىَّ من موقع الأمل عدت غير ما كنت ، فكأنَّما كان من جملتك فى كل جملة منه ، بل كأنك كنت فيه . . فقد ناسمنى من قِبله نَفَس كأن فيه روح خميلة ... لأنه سرى فىَّ روحا ورَيحانا ، وانبعث أمانىَّ حسانا ، حتى رجعنى فرجعت لنفسى كالمجهود الذى قفل من سفرة بعيدة .

فانت ترين أننا وقد رمى الدهر شملنا بالشتات ، نتواصل لا بهذه الرسائل التي لا تعدو أن تكون أخيلة مصورة للحبّ الذى جنّ جنونه ، بل نتواصل بالحبّ الذى أعرفه ، كما أراك تعرفينه ، حقيقة ثابتة بشهودها وأدلتها .

اجل ، نتواصل بالحبّ الذى يشبه فى مجرى الحياة الانسانيّة أن يكون كالمعجزة فى مجرى التكوين الألهىّ ، فان كليهما يجرى فى الدّم على نسق واحد فلا يكون منه فى الدّم الا عقيدةٌ تتمثل بحرارتها وإيمانها .

آمنتُ أن الحبّ يجعل الأنسان غير ما هو ، كما جعلت المعجزة الأنسانية غير ما هى ، فقد اتّسع قلبى لك حتى اشتمل عليك اشتمال الوردة على عطرها الذى هو سِرُّها الذائع ، فلست ، وإن حالت بينى وبينك النوى كما تحول القذاة بين الجفن والجفن ، تتحرّكين وتسكنين فى كيانك أنت ، ولكن فى هذا القلب سكناتك وحركاتك لأن فيه معانى كيانك كلّها .

فهل آمنتِ أنك رقيتِ بانسانيّتك ساعة انفتح لك هذا القلب فلم يلبث أن استحال بك قدسا ؛ لأنك لم تلبثى أن توحّدتِ فيه بما فيك من المعانى السماوية فعدت غير ما كنت ؟

وآمنتُ أنك ضاعفتِ حياتي فلم تعد تحد بالعمر الذى رسم على لوح القدر بأقيسته وألوانه وحدوده ، فان كلَّ ساعة من الفكر فيك هى ساعة فى الاتصال بك ، فهى فترةٌ زمانيةٌ ، ولكنها تترقّى من حساب الزمن إلى حساب القدر .

فهل آمنتِ أنك تضاعفتِ فى هذا القلب لأنك فيه بكلّ ما يجعلك أنت ما أنت ، إذ اقتحمت عليه من كلّ ناحية فكأنك مع هذا القلب قلب آخر . . . وإلا يكن ذلك ماوصفتُ فما الذى أنمى فىّ هذه الحياة بكل خيالٍ فيها يجلُّ حتى يكون حقيقة وكلّ حقيقة فيها تدقُّ حتى تكون خيالا ؟ فأصبحت أحسب أنى كنت قبل حبك أحيا حياة يتمثل بها البيانىُّ فى باب المجاز ؟

وآمنتُ أن حبكِ قد سما بى فوق هذه الدنيا التى يموج بعضها فى بعض ، وظلّ يسمو حتى انتهى بى إلى عالم كبيرٍ من الأحلام .

فهل آمنتِ أنك جعلتنى عبقرىّ المتّجه ، روحانى النظر، سماويّه ، فلم يعد بصرى ينفُذ من شيء حولى إلا رأيت منك فيه ، لأنى لا أرى ماحولى إلا جمالا مشرقا فكأنك تحيطين بى من جميع جهاتى !

وآمنتُ أن على هذا الكونُ قفلا وضع القدرُ أحد مفتاحيه

فى يد محب ليفتحه من ناحيته لحبيبته ، ووضع الآخر فى يد حبيبة لتوصده من ناحيتها على حبيبها .

وهأنذا من حبى لك قد أوصد علىَّ كونى ، فانا منه فى سجن لأن حبك فضيلة كله ، فانى أتحرر فيه من قيود ذاتى التى ملكتها على ، فانظرى كيف تكون حتى الأمكنة لا بأسمائها التى تطلق عليها ، ولكن بمعانيها التى تنطلق منها .

ولعلك لو رأيتنى الآن والحنين يميد بى على سكينتى تارة ، ويسبح بنفسى فى أفقك تارة أخرى ، وأنا بين ذلك غائب كشاهد ، لآمنت أنه هو الحب الذى لا أعدو وإياك أن نكون منظرا من فصل فى روايته الخالدة ، ولكنه المنظر العجب الذى تلتئم فيه فكرة الرواية ، وهو الذى جعلنى منك كالبقية من الشىء لا تستقل بنفسها ولا تصلح إلا أن تضاف إلى غيرها ليكمل بها أو يضاف غيرها اليها لتكمل به .

لقد جن بك جنونى ، ليلاى ، ولا بدع ، فان هواى بك هوى عبقرى ، من آيته أن أوفى بى على غاية لا أرانى فيها الا كالمخمور صحوه بعض سباته ، لا بل كالمغشى عليه لا هو فى صحو ولا هو فى سبات .

إنى لأُعالج أن أصف لك حبى بقلمى ، فكلما أخذ قلمى فى ذلك ، كان كهذه الأداة الدقيقة التى تحسب الزمن بدورانها من بياض الساعة على سواد دائرة هى على تناهيها فى الضيق ، كأنها دائرة الأفق فى سعتها وترامبها الى مدًى يذهب فيه كل مدى ، فلا تنفكُّ تلك الأداة تدور وهى لا تنتهى إلا لتبتدىء ، فكأن حركة القلم وهو يكتب كلمة الحبّ لا تزيد على أن تلخِّص حياة الأنسانية فى خفقة واحدة ، كأن حركة تلك الأداة على محيط دائرتها لا تزيد على أن تلخِّص أبدية الزمن فى لحظة واحدةٍ ؛ فلست أصف لك من حبك إلا مدى عجزى عن وصف مداه ، إذ كانت أداتى فيه هى هذه اللغة ، وأنّى للغة وهى من إلهام الفطرة أن تحيط بالحب وهو المحيط بالحياة كلِّها وليست اللغة إلاّ بعض أدواتها ؟

بل أنّى لى أن أصوِّر لك حبى والحب سر نظام الجاذبية وهو الذى يُطلع قلبا مع قلبٍ فى فلك ، وتمزج انسانية بانسانية فلا يكون من اثنتيهما إلاّ ملك ، وماهو الا مظهرٌ عجبٌ من مظاهر النظام الالهىّ الذى تماسكت به هذه الكائنات واندمج به بعضها فى بعض حتى كانت كلُّها كونا واحدا .

ولقد وصفتُ لك الحبّ فى القرب إذ كنا نتخاطب وكأن كلّ لفظتين متقابلتين همسُ شفتين فى شفتين ، وكأن كل تركيبٍ كلامى

أسلوب من بلاغةٍ فوق البلاغة فى التأليف ، لأنه صورة امتزاج روح بروح أو مظهر ذهاب إحداهما فى الأخرى .

ألا إن فى قلبى لأمدادًا متلاحقةً من المعانى التى تدور فيه خطرات لترتفع على قلبى كلمات ، ولكنها لا تفى ومحال أن تفى ، إلا إذا تأدّت إلى نفسك من وراء دلالتها اللغويّة . لتكون بعدُ فى نفسك شعرا ، كما يتأدّى الصوت إلى حِس الموسيقىّ نغما لينسكب بعدئذ فى نفس سامعه شجوا ، فتمام كلّ معنى فى قلبى ، أن يقع موقعه من قلبك .

وإنى لأجدنى على ما أسرفت فى كتابى هذا كأنى بادىء بأ ما بعد . . . فلا أزال وقد حارَ فىّ بعض حبك شعرًا ، وبعضُه روحانيةً ، مائج القلب بمعان قدسية مترامية الظلال ، وإن كان أسماها ما لا يزال يتلجلج فى موضعه ضنانةً به على القلم والقرطاس . . . فكأن العجز إذ يقعد بالقُدرة عن تصوير بعض المعانى دون بعض يقول للقُدرة إياك أن تتألمى .

وحسبُ ليلى أنها تألمت فى هذا القلب .

« قيس »

غمرة من غمرات الوجد

من ليلى الى قيس

- ١٨ -

قيسى :

طلع علىّ كتابك الجميل بعد أن طويت فى رصد مطلعه شهرين فى يومين ، كما يرصد السارى جَهْدَ السفر ، نور القمر ، وكنت كأننى أستنزله وحيًا من أفق نفسى وهو يتمثل خلقًا من المعانى فى أفق نفسك ، ولا عجب فإن بين كل نفسين متصلتين بريدا لا ينقطع . . .

وكان كتابك آنسَ عائدٍ لى ، فقد طالعنى وبى من سقم يعتادنى من قريبٍ ، مسٌ يشبه أن يكون سقما آخر ، فرفّت علىّ من قبله رَوحٌ كأنها من القدس لأن يد العناية الالهية كانت فوق اليد التى خطّته ، وقد خيل إلىّ أنها مسحت علىّ فخرجت من كتابك كأننى خرجت بعمر جديد .

ألا إن فى قلبى من وحى كتابك لأضعافَ ما فى قلبك من وحى كتبى كلها . فيا لله ما أجلّ ما فى هذين القلبين من الخطرات ، لأنها معانٍ من

النّسق الالهىّ فى التأليف فهى تجلّ أن تتمثّل فى تعبير إلاّ ان يهبط به ملك من السماء .

أفلا تتمثّل لك روحى وهى تصعد لتحلّق ، وتحلّق لتسبح ، وما حلّقت ولا سبحت إلا فى أفقك ؟

ثم ألا تحسّ ما تجده هذه الروح من الآلام وأنت تنفّس عنها بلطفك بعد أن جهدتها الرحلة ؟

أما والله لو جمعتُ معانى السعادة التى تواصفها الناس ، وذهبوا فى صفتها كلّ مذهب ، لما عدلت عندى مسّ هذا الألم الروحانى لأنه ألذّ ما تجده الحياة وهى تشقّ طريقها فى هذا الوجود .

لقد ملأْتَ علىّ خيالى ، فلا يكاد ينفذ بصرى من شىء فى هذه الدّنيا إلاّ من وراء هذا الخيال . ولذلك أرى كلّ شىء مستكملا جلاله على أتمّه ، وإن هذا الخيال ليمثّلك لى من خلال رسائلك كما يمثل الماء النجم بما فيه من التلألاء .

إننا روحان هائمتان فى صحراء هذه الحياة ، فما أقرب ما بينهما على البعد ، وما أبعد ما بينهما على القرب ، وإن ما بينهما ليعجز قدرة الوصف لأنه فوق منال هذه القدرة . فياليت شعرى .

« ليلى »

قطرات الندى على اوراق الورد

من قيس الى ليلى

- ١٩ -

ليلاى :

كان كتابك من يدى ، الى عقلى ، الى روحى ، كالوردة الناضرة فى يد النباتىّ ، بينا هى نسيج فى أنامله حريرُه ، إذا هى عطر فى أنفه عبيرُه ، ثم إذا هى شعر فى نفسه وحيه وتعبيرُه .

وقد عكفت عليه عكوف الخائف على جواز أمنه ، إذ ينظر فيه وكلُّ نظرة كأنها نِظرة ترتدُّ فى عمره طولا ، وكان كل خيال من أخيلة الخوف يسرى فى عمره قصرا ، والعمر هو العمر ، فكلُّ مرحلة زمانية منه تطولُ أو تقصرُ لا بطولٍ ولا قصرٍ ، ولكن بالمعنى الذى تذهب فيه أو المعنى الذى يذهب فيها ؛ ورب مرئىٍّ بعينه قارٌّ فى موضعه تنظرين اليه بمجهر فترينه بعيدا لا من بعد ، وتنظرين اليه بمجهرٍ غيره فترينه قريبا لا من قرب ؛ فان المرئىّ قارٌّ فى موضعه لا ينأى ولا يدنو مدَّ إصبع ، لأنَّ قياس المسافة لم يعد فيما بينكِ

وبين المرئيّ نفسه فقد صار تركيبا ثابتا فى مزاج كلٍّ من الجهرين .

وعلى نحو من هذا القياس المركّب فى نفسى ؛ لا أراك إلاّ معى وإن كان بينى وبينك هذا المدى المترامى ، فكأنّ سيالا روحانيًّا منك يتفجّر فى حيِّزى حتى يغمره كله ثم يطغى على الزمان والمكان .

وقد لقيتك منذ ساعة ، ولكنى لقيتك لا كما اعتدنا أن نلتقى فى هذه الفترة ، تارةً بفكرينا فى جنة الخيال ، وأخرى بطيفينا فى جوِّ الأحلام ، وثالثة بمعنيينا فى ذلك الأفق العجب الذى نتصل فيه من وراء شكلينا الماديين .

فقد رأيتك فى جوٍّ جديد عطِر من كتاب (أوراق الورد) الذى طفر به الأدب العربى طفرةً كان فضل الخيال يقصر عنها على امتداده ، ويتعثر من دونها فى ارتداده ، وأرسلته دار الطبع (السلفية) عذرا يتسع حتى يسع ذنوب أخواتها . . .

والكتب فى نفسها مرصد حىٌّ ثابت ، ترين فيه حركة العقل الأنسانىّ واتجاهاته ، بل هى ، كما كتبتِ الىّ فى إحدى رسائلك ، ميدان سلم وإن كانت العقول تنتضل فيه أبدا ، ويفوت بعضها بعضا ، وأهيب ما تكون الحرب حين تشب سلما ؛ فكأن هذه الكتب صنف آخر

من الخلق يتنافس ويتناجز كما يتنافسون ويتناجزون .

فهذا قوىٌّ من قوتين ، واحدة فيه والثانية فى ضعف غيره ، وهذا ضعيف من ضعفين ، أحدهما منه والثانى من قوة الآخر . وكأن لهذه الكتب كما للناس أعمارا ، فمنها ما تلده قريحة مؤلفه كما تلد السماء نجما ليبقى نجما أبدآ ، ومنها ما تلده قريحة مؤلفه لتلد له به هما مفردا ، فيكون منه ومن مؤلفه لقرّائه هم مثنّى . . ومنها مايوضع ولكن كمايوضع السقط قُصاراه أن يمر بالدنيا مرورا !

فأما كتاب أوراق الورد الذى لقيتك فى جوه العَطِر ، فقد كان اليتيمة الضائعة من العقد ، لأن موضعه من كتب الأدب العربى بقى خلوا ينتظره ليتحقّى به كفاء قدره .

فقد طال الزمان واستدار ، ومرّ العصر العباسىُّ بجملته وتفصيله وهو عصر الماس فى منجم التاريخ الأدبى كله ، ولكن الماسة الفرِدة لم تنضج على حرارة الأنفاس التى صعَّدتها صدور أعلام العشق الذين ذهب نثرهم فى الأفق ذهبا ، فلم يمضِ هذا الدهر عن كتاب منثور فى بابه خلا بضع رسائل توارت فى تواضعها ، على أنها لو عرضت فى معرض الأدب العالمى لما كانت إلا ما هى فى معرض الأدب العربى

نفاية تلفظ لأنها نفاية . .

فأما هذا الكتاب وهو ماسة المنجم فقد تنزّل من عبقرية مؤلفه الأستاذ السيد مصطفى صادق الرافعى .

فقد رسم عاطفة الحبّ الذى يفنى فيه قلب المحبّ ولا يفنى فى قلبه ، وأبدع فى وصف العشق الذى هو نسك بالدم فى قدس الانسانية حين تكون بين الانسانية والألوهية ، وافتنّ فى تصوير الوله الذى يذهب فيه العاشق حين يذهب به ، حتى لا يدرى ماذا بلغ من قبل ، ولا ماذا بقى عليه أن يبلغه من بعد ، فكان فيما رسم وأبدع وافتنّ ، كأنما يُلهم إلهاما .

ولولا أننى أطّلع على الأفق الذى يذهب فيه خيال (الرافعى) صُعُدا ، لحسبت أن لقلبه باصرتين نفذت أشعّتهما من كلّ ذرة من هذا القلب الذى تقدست فى محرابه ، وجرى حبك فيه واطّرَدَ وتدفّع فجعل بعض كتابه ترجمةً حرفيةً لهذا الحبّ وإن كانت ترجمته لدقتها كأنها أصل كان فى لغة أخرى .

فأما وصفه للجمال فهو كوصفه للحبّ كلاهما يجنّ به ، وكأنى به يصف إنسانية ملكية مستبدّة بالجمال كله ، فهو فيها فنون ، بل هو

فيها متون ، لكل منها فى فقه الجمال ونسب معانيه بعضها الى بعض ، حواش وتعليقات. . . ولكن ليس فيها كلها عقدةٌ تحلُّ بما يزيدها تعقدا ، وقد جعل موصوفته تنعم من صلتها به ، كما أنعم من صلتي بك نعيما معنويا ، وأملك ما يكون الجمالُ للقلب حين يكون قوة سماوية تصعد بنفسين فى مدارج الكمال الى المستوى الذى يكون فيه على الانسانية ظلٌّ من الألوهية .

فلولا يقيني أنك لا تعرفينه ، لخيلت لى فتنة تصويره أنه ينطق بحروف اسمك ، وربما كان فى بعض الوصف كل التسمية .

فأما فلسفته فى مادّتى الحبّ والجمال ، ومعانى تينك المادتين ، وأخيلة هذه المعانى ، وألوان تلك الأخيلة ، حين ترفّ على النفس فحدثى غير ملول . أوخذى حديثه غير مملول .

فأما أسلوبه البلاغىُّ فهو أسلوب يتميَّز بنفسه كما تتميَّز الماسة بنفسها مما حولها ؛ ولقد كنت سألتنى أن أبعث اليك بكتاب يخرج به الأدب العربىُّ من كونه أدب لغة ؛ الى أنه أدب إنسانىٌّ فهأنذا أجيبك بهذا الكتاب لأن موضوعه هو موضوع الانسانية كلها .

وآية أخرى له أنه جاء كالحدّ الفاصل الذى يقوم فى فضاء غير

محدود، فقد كان مدارُ الجدل بين شيوخ المدرسة القديمة ونابتة المدرسة الحديثة، على محور من معارضة القديم بالجديد، والموازنة بين المذهبين؛ ولكنّ المتجادلين كانوا كأنهم يضربون في مجهل، لا حدّ فيه يتميّز به القديم بقدمه، والجديد بجدّته، فكل من يضرب فيه فهو متقدم لأنه في حساب غيره متأخّر، فسطعت أوراق الورد في هذا المجهل فكانت من حجة المذهب القديم ولكنها في أجدّ صور الجديد.

فمن شاء من المحدثين فليؤمن، ومن شاء فليكفر، إنه إن آمن وأقر آمن وقيل صدّيق؛ وإن كفر وأنكر، كفر وقيل زنديق؛ على أن الحقيقة وحدها أبلغ ردٍّ على الخيال.

الا إننا الآن بازاء عمل ثابت بشهوده وأدلته لا بإزاء قول يقال أو زعم يزعم.. فقد صُقلت المرآة ليرى فيها الجميل وجهه فتقول له أنت جميل، ويرى.. ويرى فيها الدميم وجهه فتقول له أنت دميم، وهل يحكم للعينين على الوجه الذى هما فيه حكما قاطعا إلاّ شهادة المرآة؟

أجل. المرآة يافاتنتى، وماذا أقول، أقول آه لما تر ينه أنت فى مرآتك وآه لما تقول لك حين يطلع وجهك فى هالتها فانها تقول لك ارحميه! ارحميه!

«قيس»

فى محراب الحب

من ليلى الى قيس

- ١٩ -

قيسى:

رأيت الساعة ساعى البريد مزهوًّا كدأبه كلما زفَّ الىَّ طيفًا منك فى كتاب ، فانتفضت من ذهول لزمنى فى هذه الفترة على مدّها واستطالتها ، لأذهل هنيهة أظننى خرجت فيها من يومى ، فقد مالت أذنى كأنها تتسمّع لما فى أمسى ، وامتدَّ بصرى كأنه يتنظّر ما فى غدى ، وتطلّعت نفسى كأنها تستشفُّ ما وراء الغيب ؛ وأنا على ما أتسمّع وأتنظّر كأنى أتأدّى الى تعرُّف المجهول ، ثم أفقت على كتابك فأشرقت نفسى ، وملكتها هزّة من الزهو كأنك استفضتَ عليها من خيالى ، أو كأن خيالك هو الذى استفاض عليها ، فقد زُهيت ثم زُهيت حتى خيل الىَّ أن هذا الزّهو فنٌّ وأن هذا الشعور مظهر من هذا الفن تكون الفتاة به فى رأى نفسها كالملك فترة .. ثم تنقضى .

أفرأيت كيف وضع حبك فى تاريخى معانى من الخيال أطير بها

عن نفسي حينا فأكون وأنا فتاة أكبر من فتاة ، وأسبق الزمان بها حينا فأطلُّ من يومي على غدي ، كأني أنفذ بقوة كامنة في نفسي من أقطار الغيب ؟

ورأيتَ أنك مطلق التصرُّف في كياني المعنوي بكلِّ ما يجعله كونا متميّزا مستقلا ؛ فقد رفعتني بمرآة الحب طفرة واحدةً لا درجةً درجةً ، حتى بلغت مستوى أكاد أسمع فيه تسبيح الملائكة فإنه لا ترتفع اليه إلاّ من قدرت أن تنسى ذاتها ، وتنسى في ذاتها الشكل الأنساني من حبيبها ، فقد تحوّلتُ بالحبّ ثم تحولتُ حتى كنت كأنني جزء من قاعدةٍ في نظام الأنسانية العليا أو كأنني بعض شريعة قلبية لهذا الطراز من الأنسانية .

ورأيتَ كيف فسرتَ لي سرا من طبيعتي كان غامضا ، فان ما يتراءى فيك من جمال معنوي لونا من لون ، ومظهرا من مظهرٍ ، هو الذي استثار ما بي من الأعجاب حالةً بعد حالة ، ثم عاد الأعجاب حبا بلغ بي أبعد مدى ، ولعلّ أبعد مدى من الأعجاب هو أقرب مدى من التقديس .

ورأيتَ أنك منذ وضعتني في تلك المنطقة السحرية المسماة بالحب

أنشأتَ فى حسيّ منطقة أخرى من الأنس بك حتى لا يخلو حسيّ منك ساعة ، فأنسى أن بينى وبينك هذا البعد البعيد الذى يترامى برسائلى مسافات ومسافات ؛ وأكاد أكلمك بل يكاد صوتُك يمسكه سمعى ، إذ تكاد أشواقى تجذبك بطغيانها حتى كأنك تطفر من دمى مرة بعد مرة .

ورأيتَ كيف كان حبى لك هو الحبّ كله ، حتى لا أحسب أن مثلى أحبّت مِثلك إلا حسبت أنها تستعيرُ من حبى لك لتعير حسّى بعدئذ من لذاذة حبها وآلامه .

ورأيتَ أنك بجاذبيتك القويّة تجذبنى اليك حتى لا أرانى معك إلا كالمأخوذة فى معركة لم تملك أن تثبت فيها ولا أن تفر منها ، فأخذت ولكنها أخذت لتُعطىَ فيا عجبا لاسترقاق فيه كل الأعتاق .

ورأيتَ كيف أن الحب هو الوسيلة التى تفقد بها المحبة نفسها فى أطواء إنسانها إذ يؤدّى اليها أنها تمرّ من دنياها فى سجنٍ يضيق بها حتى لا يكاد يسع معها خيالها ، وقد أوصد عليها الباب الذهبى فهى حبيسةٌ فيما وراءه !

ورأيتَ كيف أن حبى لك لم يعد حبا إنسانيا ينتهى الى أفق ، أيًّا

كان سموه ، ولكنّه حب يتجاوز الآفاق كلها مرتقيا إلى ما هو أسمى وأكرم ؛ متجهٌ أبدا إلى طرفه الأعلى ، الذى يدع ما يحدُّ ويتنهى يفنى فيما لا يُحدُّ ولا يتناهى .

ورأيتَ كيف سحر حبك على حواسىّ فان الشّكل الذى تتراءى فيه روحانيتك ، على أنه ماثل فى حسىّ أبدا ، مستفيض من حسىّ أبدا ، على ما حولى وعلى الزمان والمكان أيضا .

ورأيتَ كيف أمسيتُ وكأن فى تركيبى وهجا من طبيعة النار ، هى عنصر واحد بخصائصه ؛ ولكنها من طغيان عذابها ، ومعانى طغيانها ، وألوان معانيها ، كأنها تتعدّد ممّا تنمى . وتتجدّد ممّا تشبّ . وتتزّيد ممّا تتسع وترتفع .

فماذا وراء النار ؟ ماذا ؟

« ليلى »

يارحمتا للعاشقين

من ليلى إلى قيس

- ٢٠ -

قيسى :

يملكنى فى هذه الفترة الباقية على تلاقينا ما يملك سجينا فقد نفسه فى محنته ، قبيل أن ينعم بحرّيته : من شعور قوىّ بهذه الوحدة يضاعفهُ علىّ أنه يجمع على قلبى فى كلّ ساعةٍ ما تفرق من همى وشجنى فيما قبلها ؛ وحنينٍ دائب الى الخروج من هذه الوحده ولو الى موت وحىّ ، فانه أروحُ لى من هذا الموت البطىء الذى تموته علىّ نفسى فى هذا المنفى ، وأنكى البلاء ما تودُّ النفس أن تخرج منه ولو بالخروج من هذه الدنيا !

أجل ، قيس ، هو شعور لا عهد لى به ولكنه لا معدى لى عنه ، وإنه ليحرُّ علىّ حرةً بعد حرةٍ ، كأنما ينبعث فى جهات نفسى وهجا يوشك أن يتضوّأ حتى لا قرار لى عليه .

وهو هو شعورى : أحسب من حدّته واستفاضته أنه يسرى فى صدرى ضيقا يلحّ على هذا الصدر الواهن حتى كأنه يضغطه بزنة همى ما حملت منه قبل سنّه، وما أوشك أن أحمل منه ، بل كأنما هو يضغط نفسى بقوة غير مترفّقة . ومن ثم يضيق بى هذا المكان على رحبه حتى كأننى أتلفف من جهاته فى مثل الثوب !

وهو هو شعورى يخيّل إلىّ أن هذه الفترة الباقية على اللقاء تتشعب فترتين ، إحداهما واجمة قلقة متطيّرة كأن من ورائها بغتة واقعة من قدر يقع ، والأخرى والهة متسلّبة مترعة من الشجو ، والشجن ، وما أرانى بين هاتين الشعبتين إلا موزّعة النفس شعبا .

وهو هو شعورى الذى ما كذبنى قطّ لأنه من موطن الالهام فى فطرتى ، وإنى لأجده يتحوّل فىّ هذه المرة وجوما لا أعرف مأتاه . وقلقا يتقاصر مدى صبرى دون بداية مداه .

فاذا كانت البسمات فى رأيك هى المنطق الذى لا تنطق به النفس فان الوجوم والقلق والتطير هى فى رأيى ، أوضاع من نسق منطق آخر .

ترى ماذا تلفّف لى فى أطواء الغيب ؟ فانى لأرانى الساعة كأن

قلبي بوجيبه فى موضعه بين أضلعى ، طائر واهن ينتفض فى حيزه من وكره خوفا من العاصفة قبـــل أن تتسحَّب من مهبِّها ، بل لا أكاد أتماسك كأن جملة مفصَّلة من الهمّ تتجمَّع عليّ أو هن ما كنت جملة وتفصيلا، لتتركنى فى موضعى بددًا .

وها أنذا بين ذمة الليل وهو ويل ، وذمة الويل وهو برهبته ومخاوفه ليل ، أضيع من الحق بين الشبهة والهوى ، أحسُّ فى جانب الحذر من نفسى دبيب همٍّ مبهم لا قبل لى بتعرُّفه ، وألمح على حاشية الغيب خيالا مزعجا لا طاقة لى بتبينه ، وكأنى أسمع من حولى هاتفا أعرفه يهتف بما أجهله ؛ فإلا يكن ذلك كله نذيرا من الفجيعة فهو من ظللها الذى بدأ يمتدُّ على ظلى .

لقد تكشف هذا القلق الذى استحوز على قلبي ، عن سره الذى كان مستكنا وراء مكان الصبر منه ، وتركتنى هذه الطِّيرة التى أحالت فى عينى كل شيء حتى لون القمر كدِرا مظلما ، وكأن عمرى قد استحال ليلةً مريضة النجم، بل كأننى من هذا الوجوم الذى لبسنى من فرعٍ الى قدمٍ تمثال جزع ولكنه تمثال حى ! فيا من رأى واجمة مهمومة لا تدرى سر وجومها . ولا تعرف على الظنّ ولا على التحقيق

مآتى همومها .

ياويح لى مما أكابد من هذه المعانى التى تستطير فى دمى شررا يكاد يتلظّى ! ويا ويح لى مما أعانى من حدْسى فى يومى ! ثم ياويحَ لى مما أتوجّس من مخاوف غدى . .

وما بى أن يرمينى القدر بسهمٍ يقع منى حيثُ هو واقع ، فانى لا أعبأ بما يصيبنى فى خاصّة نفسى ما سلم شرفى ، وسلِمتَ لى ، ولكن الذى أخافه وأجزعُ منهُ وأكبره على القدر هو أن يلمّ على ما بينى وبينك . فتلك التى أستحبُّ عليها الموت وأوثره .

فياليت شعرى ماذا وراء هذه السّحابة التى يغيم بها صحوى ؟ فقد أمسيتُ ذاهلةً على صحوٍ ، هامدةً على يقظة ، مأخوذةً على حذر ، قلقةً على طمأنينة ولكنها كطمأنينة اليأس ، وأمسيتُ وقد غُمّ علىّ حتى لا متجه لى ، فإنى لأنظر الى ما حولى نظر من تجهل حتى لا تعرف ، وأحسُّ ظل الحياة يثقل على نفسى حتى كأنه ضباب ، وقطع الهم تتجمّع على صدرى كما يتجمّع فى السماء السحاب ، وقد كدت لما بى ، فهل يكون ذلك من صحوة الموت الذى أموته أم هو من سكرة الحياة التى أحياها ؟ .

ومن لى برسالةٍ من رسائـلك أنظم بها من نفسى ما تفرق بددًا ، وأستنقذ بهـا هذه الصُّبابة الباقيـة من الأمل قبل أن يشتقّها اليأس ، وأمسك بها الذمَّاء ريثما ألقاك ؟

من لى قيسى ، مَن ...

« ليلى »

حنين روحٍ الى روحٍ

من قيس الى ليلى

-٢٢-

ليلاى :

رفّ على نفسى ظلٌّ أشرقتْ وتندّتْ به ، لأنه كان عليها كأنه موجة من الضوء تتندّى مشرقةً على صفحة مرآة مجلوة ، فمن ذلك أيقنت أن طيفك قد ألمّ بنفسى فى هذه السّاعة إلمامةً كان معها هذا الفيض من الفتنة والسحر والجاذبيـة .

ومن ذلك آمنتُ أن كونى قد اتصل بعض الاتّصال بروح الجمال الأزلىّ الذى يغمر الكون كلّـه ، وأن هذه السّـاعة كانت بطيبها أبديةً صغيرة على قدر ما يمتدُّ العمر ، ذاهبة فى الأبدية الـكبيرة التى هى على قدر ما يمـتدُّ الزمن .

ووجدتُ من أثر تجلّيك على نفسى فى طيفك ، كأن طيفك يتصرّف فى نفسى بنوعٍ من التوجيه كان فى بدايته إلهاما ، ثم عاد مزجا لهذه النفس بهذا الـكون حتى لا أدرى أهى التى طوته فيها ليكون فيها حبّا كله ،

أم هو الذى طواها فيه لتكون فيه جمالا كلها ، ولكن الذى أدريه أن الحب إنما وحد بينى وبينك لنفنى معانى الجلال القدسى الأعلى الذى تتعبد له نفسى ونفسك .

ووجدتُ فى ترائيك لى فى صور معددة ، معانى من عمل الأشعة فى صبغ كل ما تقع عليه وتلوينه بلون كأنه من وفائى لك فهو لا يحول .

فقد رأيتنى أتحول معك من أننى كائن مادى مقيد بما فيه من المعانى السماوية ، الى أننى كائن من هذه المعانى مطلق من قيد ماديته .

ومن أننى إنسان محصور بين حدود إنسانيته ، إلى أننى إنسانية غير محصورة بين حدود إنسان .

ومن أننى محب يفنى فى حبه ، الى أننى حب يبقى ولا يفنى .

ثم تحول هذا الحب من كونه نشوة روحية تفيض من دم على دم ، الى أنه نفَس سماوى يستفيض من روح الى روح ولا يزال .

وقد وجدتُك معى فى أخيلة الصحو والنشوة ، كما فى الذهول وهو لا نشوة ولا صحو .

وفى أحلام الكرى واليقظة ، كما فى السِّنة وهى لا يقظة ولا كرى .

وفى سبحات الوجد والطرب ، كما فى الشجو وهو لا طرب ولا وجد .

وفى أمانىّ الصّحة والسّقم ، كما فى الفتور وهو لا صحّة ولا سقم .
وفى معانى الصمت .. والكلام ، كما فى الهمهمة وهى لا صمت ولا كلام.
وفى خواطر اليقين والظنّ ، كما فى الوهم وهو لا يقين ولا ظنّ .
وفى بدوات السكينة والقلق ، كما فى التمنى وهو لا قلق ولا سكينـة .
فما من حالة لى كنتُ فيها إلا كنتِ معى على حالة لى بقدرها. فهل هو حلم عبقرىٌّ يطوف بخيالى فأراك من أثناء الحلم كما يصوِّرك ، أم أنت ظاهرة إلهية خُلقت فى حقيقتى لتكون فيها حقيقة أولى ؟
وإنى وإياك لنتراسل فى كلِّ ساعة فأتلقى رسالتك كأنما هى وحى يتلقاه خاطرى ، فإنى لأسمع فى خاطرى صدًى يشيع فيه خافتا خافتا فلا يُشبهه إلا صدى اللحن المطرب أثر توقيعه .
وتتلقّـين رسالتى شعورا منتقـلا بنفسه كما ينتقل الصوت، لأن الشعورَ حركـة نفسية سريعة ، بل تتلقينها فكرا يموج فى حسِّك بأسرع مما يموجُ النور فى الفضاء .
ويجيئنى البريد بكـتابك فأتلوه كما هو قبلَ أن أفضَّ الصّـدفة عن لؤلؤتها ، كما كنت أتلو المعانى المستترة فى لمح عينيك ، وافـترار شفتيك ، وكما كنت تقرئين الخواطر المستكنّـة وراء زفراتى وعبراتى

فاذا أخذتُ فى تلاوة الكتاب بعدذلك فكأنك صعدت بى الى أفقك حتى أكاد والكتاب فى يدى أجدُ نَفَسك من قِبله ، وأسمع همسات شفتيك فى ثغور ألفاظه ، وأرى نظراتك فى عيون معانيه ، وألمحك جملةً فى جُمله ، حتى كأن البريد حمل الىّ منك طيفاً لا رسالة .

ويجيئك البريد بكتابى وهو صبابة تتمثل كلمات بين كلّ كلمة وكلمة منها نفَس يتلهّب ويحرُّ . وخفقة من هذا القلب الذى يحيا من الحب بقدر . ويموت منه بقدر .

فلا أكاد ألقى كتابك حتى يكون قد تحوّل فى نفسى فما هى إلا لحظة حتى يجول فيها ، فاذا هو شعر ولاوزن ، وشدوٌ ولا لحن ، وفنٌّ من الطرب ولكنه هو وحده الفن .

أفأنت تكتبين إلىّ بوترٍ من عود ؟ أم معانيك هى التى تجىء نغما روحانيا من لحن غير معهود ؟

وأحسَب أنك لا تقرئين لى كتابا حتى ترينى فى أثنائه وعلى شفتىّ مع البسمة المتوارية فى زهو الشباب المدبر ، تلك السّمة البادية من طابَع الشقوة المقبلة ، ويا لله من هذا الطابَع الذى تسمُ به يد القدر حياة المحبين فيشقون به ومن هذه الشقوة يخرج لهم نعيمهم الذى به ينعَمون .

لا ، بل سقيا ورعيا للحبِّ فانه هو الذى يضاعف للمحبِّ حياته إذ يجعل منه إنسانين كلاهما متجدِّد أبدا .

الحب ! ألا إن فيه مما فيه ، معنيين ساميين أحدهما من الايمان والآخر من الحكمة ، فإذا كان الايمان نسقًا قلبيا من الحكمة وكانت الحكمة نسقا عقليا من الايمان ، فان فى الحب من هذين معاً لأنه يكون فى بدئه صلة بين المحب وهذا الجمال المحدود فى حبيبته، ثم يكون علاقةً بين النفس المتعلقة بحبيبتها وهى طبيعة صغرى ، والجمال الأزلىّ غير المحدود فى الكون وهو الطبيعة الكبرى ، ثم يكون شغلا للمحب بمبدع الطبيعتين .

فكأن هذا الحب شكلٌ دينى يتصل منه الانسان بالحقيقة الالهية فى دين الله ، فتباركْت اللهمَّ وتقدسْت فى كونك .

وعززتِ ليلى وتفرَّدتِ فى كون محبك : « قيس »

ليلى تناجى قيسا

من ليلى الى قيس

- ٢٣ -

قيس :

كان من أثر كتابك فى نفسى أن عادت نفسى به كأنها نسمة ذاهلة تدرج فى جو يشبه أن يكون جو رؤيا .... فقد ذوى إنسانى فىّ من قبل بنزعاته وصفاته ثم جعل يذوى ، وكانت نفسى بقدر ذلك قد تنضرت وقويت ثم جعلت تتنضّر وتقوى . فأيقنت أن قبسا من النار المقدّسة التى تتقد فىّ قد أخذت تفنى إنسانى فى إنسانيتى ولا تزال تفنيه .

فان العهد بالمحنة حين تمس إنسانيةً ما أن تطهرها، أو تزيدها طهرا ، أو تجعلها طهرا كلها ، فبقدر المحنة يكون أثرها ، إذ توقظ فى النفس أو تخلق فيها أنبل النزعات ، وأكرم الصفات ، فلا عجب إذا كان الحب وهو أحلى منحة فى أمرّ محنة ، وضعًا إلهيًّا ترتقى به الانسانية من مستواها الأدنى إلى مستواها الأعلى .

إنى لأخلو الى نفسى فى القينة بعد القينة وأحبب الىّ بذلك ،

لأنى فى هذه الفترات إما أن أكون معك بخيالى الذى لا يفتأ يحوم حولك حومان الطائر الظمآن حول الورد ، وإما أن تكون معى فى جوّ عبق من رسائلك لأن لقلمك قدرة تخيِّلك الىّ فى سطور تلك الرسائل، وفيما بين سطورها ، ومن ثم نتناجى .

وربما ذهبتَ إلى أنى أغلو فيما أصف من تخييل رسائلك التى أغالى بها ، أو حسبتَنى آتى به فى وضعٍ شعرىٍّ ، والحق أنى ما فكرت فيك ساعةً إلا ناجيتك ، ولا ناجيتك مرة الا حسبتك من مجلسى بمرأى ومسمع ، ولا عكفتُ على رسالةٍ من رسائلك أتلوها الا حسبتُ تلك المعانى الملكية السامية من إنسانيّتك تتمثّل لى خلقا سويا فى شكل من تعبيرك ، وخيِّل الىّ أن فى روح هذا الشكل خيالا منك يشير الى ما وراء حدّ كلِّ عبارة ، وكل جملةٍ من عبارةٍ ، وكلّ كلمةٍ من جملة ، وكلّ معنى من كلمةٍ ، لأن لبعض الكلام معانى لا تجدها فى معجم مطبوع أو مخطوط ، ولكنها فى معجمين اثنين أحدهما من نفس الكاتب والآخر من نفس القارىء ، ولعلك تسألنى دليلا ، ولا دليل الا شعور وجدانى ، وأعجب ما فى هذا الشعور أنه لا على قلبى سِمته ، ولا على لسانى صِفته ، فان بعض الشعور فوق منال الوصف ، إلا أن يكون من

قلبك الذى ينفث السحر بيانا ، ويرسل البيان طبقة واحدة ولكنها طبقة عليا لأنها هى بلاغة فوق البلاغة .

فهل هو حسّى الذى يرينى من رسائلك مالا ترى عين ، ويسمعنى من أثنائها مالا تسمع أذن ، ويخيّل الىّ فيها مالا يكاد يرقى اليه خيال ؟

أم أن فى رسائلك من حسّك ، ومن ذلك لا أكاد أتلو رسالة منها إلا حسبت أن فى كل عبارة منها نفَسا من قبلك نفاحا ، ومعنى من حنانك لماحا؟

أم أن كل رسالة منك حين أتلوها هى حلم بمخيلتى ولكنه من أحلام يقظتى ؟

أم أن الدقائق التى أتلو فيها رسائلك ليست من الزمن وإنما هى من غفلته التى تندر فيها بين فترة وفترة منه ؟

أم أن أسرار الحب هى التى تفيض معانيها على حس من حس فيكون كل معنى منها كأنه مظهر من قدرة على مظهر من الخلق والابداع ، ومن ذلك ترى النفس من الصور ، وتسمع من الألحان ، وتجد من عبق المعانى ، ما لم تكن ترى ولا تسمع ولا تحس من قبل ؟

أليس كذلك يا قيس ؟ « ليلى »

لحن من ألحان الحب

من قيس الى ليلى

— ٢٤ —

ليلاى :

لم تكن رسالتك إلىّ أخذةً من أخذ السحر التى تنفذ الى النفس من وهمها فتكون معه وهما أكبر ، ولكنها كانت إشراقا رأيتُ على نوره طيفك كما أرى على نور إيمانى طيف الجنة .

أجل ، كانت إشراقا رأيت عليه مع طيفك ذلك السرَّ الذى تلفف فى أطواء نفسى فصفت به حتى كأن نفحة سماوية تراوحها وتغاديها .

وهذا السر هو أنت ، لأنك جلت فى أنحاء نفسى مجال عرق النور فى الماسة النفيسة ، فهذه نفسى بك لولا أنك فيها لصدئت ، وصدأ السيف بعضه ولكنه يأكله كلّه ، وهذه الماسة الكريمة بعرق النور الذى يضرب فيها فتمسكه وكأنها تمجّه ، فلولاه لتفتّتت لأنها لا تكون بدونه إلا حصاة مثل كل حصاة أخرى .

ولقد قرأت رسالتك منتهيا بكلّ معنى من معانيها من أبعد حدّ له

فى نفسى الى حدّه الذى هو فى نفسك لأنه شعاع منهـــا ، فليست رسالتك الىّ فى لغة الحب الا من فلسفته التى لها متن واحد ، ولـكن لـكلّ قلب عليها تـكملة وتعليقا . . .

وعلى هذا الحساب كنتُ ما كنتُ منك ، فما أرانى وإياك إلا مجموعا واحدا لرقمين اثنين ذهب كـلٌ منهما فى الآخر بالأثبات فى موضع الجمع ، فلم تعد حقيقته فى نفسه الا توهما .

ومن آية ذلك أننى منذ صدع البين شملى هذه الصدعة التى تركتْ قلبى غير جميع ، أشعر كـأن عمرى يستحيل سكونا فى موضعه من الحركة الفلـكية الدائبة التى نسميها الزمن ، وأجد كأن ذاتى لم تعد متصلةً بهذا السكون اتصالا معنويا ، وأحس كـأن حياتى تحور عدما حيا ؛ من حزّ الشوق فى بعضها ، وطغيان اللهفة على بعضها ، وذهاب البين بالبقية ، حتى لا أرانى إلا كـالمتأهب لسفرة بعيدة ، فهو لا يحسب حاضرا ولا غائبا ، ولا يرانى من حولى فى الناس إلا كما يرون الطلل فى المدينة الآهلة ، لا هو عدم ولا هو وجود .

أواه من هذه اللهفة التى تثور على قلبى حرقًا متضرِّمة فيه ، فاذا قلبى يتنزّى بين جنبى بآلامه وأوجاعه ، كالبحر تعصف به العاصفة

فتضرب بعضه ببعض ثم تكون فيه زلزلة ترتج بين ساحليه .

وأوّاه من هذا الوجد الجد ، الذى يدعنى فىَّ كأننى محتضر تتسلّف الندب له جارحة ، والنوح عليه أخرى ، ولا يزال فى هذا المحتضر أطيبه وأنفسه ، وهو الفكر فيك بالمعانى المتلظية من الحب ، وهى التى يخرج بعضها من بعض لتلتقى فيك كلها كما تلتقى فى الوردة معانيها العبقة ، لأنها هى أنفاس شعرها ؛ وأواه من هذه الآلام التى تحز فى قلبى حزا داميا ، وكل ألم منها إذ يطير منه ، كأنه ألم يطير به . وما الآلام فى مردّ أمرها إلا المعانى العنيفة أو الحزينة فى شعر المادة ، ومن ثم كانت اللذات الكريمة هى المعانى اللطيفة ، أو الفرحة ، فى شعر النفس ، والانسان نفس فى مادة تمسكها ، فهو ولا جرم يسعد بمعنى ويشقى بمعنى .

وأواه من هذه الوحدة التى تحصرنى فى حيزى ، فأنا فيه بمعزل عن الدنيا ما بقيت وبينى وبينك هذا البعد المترامى .

لقد عرفت الحب ثم عرفته منذ استطارت أول نظرة من عينيك فى دمى كهرباء ما برح دمى يرجف بها ، وكنت أظننى بلغت فيه الغاية التى لا غاية من بعدها ، ولكنه ما يزال فى كل حين ينشر لى من

معانيه التى انطوت فى قلبى ، معنى يكبر ثم يكبر حتى كأنه هو حب على حدة مستقل بين حدود قلب مفتون مع قلبى ، فكأننى فى كل حين إنسان غيرى له مع حبه من قبل ، حب من بعد بآلامه ولذاته .

بل كأننى أضرب على هدى فى دنيا جمال ، تحتوى منى محبين لكل منهم حبه بجنته وناره ! ومن ثم لا أرانى أحبك بقلب فرد من جنسى بل بقلوب جنسى كله ، إذ كنتِ من الجمال الألهى الذى تجتليك فيه نفسى كأنك تلبسين فى كل يوم صورة من صوره الساحرة ، التى جمعت فيك لتتفرق فى نفسى ، فبإزاء جمالك المتجدد فى صوره الساحرة حبى الذى ينمو أبداً ويتضاعف على فى معانيه المستعرة .

ألا إن الحب الذى عرفته هو سمو بالنفس عن المادة ، ولا تزال نفسى تصعد صعودين أحدهما بسموها ، والآخر بهبوط مادتها .

وسلمت ثم سلمت ليلى .

« قيس »

صلاة الحب وسلامه

من قيس الى ليلى

- ٢٥ -

ليلاى :

انتهى بى الفكر في معانى جمالك إلى رأى بقى يتّضح ويتميّز فى فكرى حتى قرّ فى النهاية قرار كل حقيقة ؛ ذلك أنك أنت كون من الجمال على حِدة فى هذا الكون ، فان فى خصائص هذا الجمال معانى من القوانين الثابتة التى تسيطر على المادّة ، وفى جاذبيته ، وهى أعلى خصائصه ، شبها من القدَر الذى هو قانون فوق كلّ قانون .

فانى لأجد أن إحدى هذه الخصائص تنطلق فى نفسى منها دنيا شعرية من أخيلتها وأمانيها وأحلامها ، وأنّ تيارا من هذه الجاذبية يسرى بقوته فى قلبى الواهن ، فإذا فى قلبى منه كون من الأسرار تنبثّ فيه فأرى بها كلّ ما فى هذا الكون كما هو فى وهمى لا كما هو فى حقيقته ، وأن قوة من قبلك تتصل بى من وراء نفسى فلا ألبث أن أتحوّل بها من حالة يقظة يعِنّ فيها حلم بعد حلم ، إلى حالة من الحلم تستطير فيها يقظة

بعد يقظة .

فأنت شائعة المعانى فى كيانى المعنوى ، بك يتجلى لى كل ما فى هذا الكيان شكلا فى شكل يهم من فتنته و تخييله أن ينطق فيقول لى : المس معانيها بجملتها فىّ بجملتى .

وأنت سارية فيما حولى جلالا مشرقا يلبس كل ما حولى ، كأن فيك معنىً من القوة المتصرّفة فى المادة تصرفك فى حسى دقةً ومضاء ورهافةً يكاد حسى ينفذ بها عمّا وراء الطبيعة .

وأنت منطلقة فى حياتى بكل فن من عبقريتك يـدع حياتى كأنها هى أيضا منطلقةٌ فى هـذا الـكون تشيع فيه صاعدة صاعد ة بالمعانى السماوية التى تقاسمها متجهة إلى الطّرف الالهى ، فلم تعد هذه الحيـاة محصورة بين حدودها . لأنها لا تفتأ تحوم حول سرّ وجودها .

وأنت ذاهبة فى سماء خيالى تصعدين معه طبقةً بعد طبقة ، فهو أبدا طائر يسبح سبحاته الروحانية فى أفق جمالك الذى تحد طبيعته ، ذاهبا منه الى الطبيعة التى لا يحدّ جمالها ، مترقيا منهما إلى مبدع الجمال الأعلى فيك وفى الطبيعة معا .

وأنت منسكبة فى شخصيتى تشرفين منها على كل شىء يأخذه بصرى قبل

أن يأخذه ؛ وتلوحين لى حيثما كنت كأنك تلوحين من وراء الزمن ، فعلى كلِّ شيء ظلٌّ من شخصيتك يترسّل من كلِّ مكان يملكنى إلى كلِّ كائن أملكه؛ حتى ليخيَّل إلىّ أن من الاشياء ما يفترّ، ومنها ما يدمع ، ومنها ما يدل ويتخايل؛ وأنى محصور منك فى منطقة سحرية تمتدُّ وتمضى معى ممتدّة حولى حيث أكون لأنك تمدينها وتمضين معها حيث تكونين.

وأنت دائبةُ اللمس بروحانيتك لروحانيتى لمسا يدعنى وإياك مجتمعين فى فكرة قدسية هى التى طارت بنا من وراء شكلينا المادّيين طيرة نفنى بها فى الجمال الأزلى ولا نبرح نفنى .

وأنت منزّلةٌ على حسِّى كأنك وحى يوحى إلىّ ما يغبٌّ ولا يفتر ولا ينقطع ، فما من خطرة لك فى أطواء حسك يدب دبيبها فيه خافتا إلا رجّعه حسى عاليا .

وأنت متجليةٌ على نفسى ظاهرةً إلهيةً تستولى بجملتها على حسى بجملته ، فتدعه من الأشراق والصفاء كأنما هو مغمور فى نبع صاف مشرق من النور القدسى ، وكأن هذا النبع يفيض من كونى المقيد على هذا الكون المطلق .

وأنت نازلةٌ منى ، على تعاليك ، منزلة القدر السماوىّ لا يقع حين

يقع الا بجملته ، ثم لا يكون حين يقع فى الأرض إلاّ ما قدر فى السماء ، لا يرتدُّ شيء منه بشيء يردُّه ، ولا ينثنى منه طرف إلى طرف ، ولكنَّه يمضى إلى غايته ويكمل بعضه بعضا .

وأنت مركَّبةٌ فى جملتى تركيبا عجيبا يدعك بجملتك كأنك معجزة فى قلبى ، ينطوى بها قلبى على بعض السِّرِّ الأزلىِّ الذى يدور على الأبعاد كلها على تراميها مدى من مدى ، وامتدادها زمنا من زمن ، لأن الأبعاد كلَّها منطوية فيه كلِّه ؛ فما بين أول ساعة لحت فيها لحاستى الشِّعرية تمثالا فى كلِّ شيء من جماله الحىِّ فن من الجمال ، وبين هذه الساعة التى أكتب اليك فيها إلا كرة من الفكر على الماضى كأن فى الفكر أزلية بقدره .

وأنت واسعةٌ أيام حياتى بِسِمَتك ، ومن ثم لم تعد أيام حياتى من ليل ونهار ؛ فهى قطعة من الخلود جاءت بطبيعتها فوق الزمن بطبيعته ، ولم يعد كلُّ مكان أحلُّ به مكانا من الأرض محدودا منها بحدوده ، ولكنه طبقة بينك وبين السماء فأنا بين سماوين كأننى كرةٌ من الكهرباء بين مرآة ومرآة ، فالكرةُ فى حقيقتها واحدة ولكنها فى الوهم اثنتان .

وأنت ماثلةٌ فى المكان الذى يحتويك ، ولكنك أيضا ماثلة معى فى موطنك من كونى الذى يحتوينى ، على انفراج البعد بين المكانين مسافات من مسافات ، كأن أقرب القرب يمكن أن يكون من أبعد البعد .

وطالما تخيلتك معى وعلى لسانك منطقه ، كأنه أُخذ من السحر ولكنَّ فى بريق عينيك واقترار شفتيك ، منطقا آخر يهمُّ أن ينطق فأستمع منه للكلام الذى لا تتكلمين به .

وأنت مغريةٌ لايمانى بالمزيد حتى لامزيد عليه ، كأنك شكل دينى موضوع فى جهات نفسى ، لا بل كأنك كنت مع الفطرة من الفطرة فى طبع النفس على الدين وإقرارها عليه بوسيلة لا وسيلة مثلها فى قوتها ، فهى تدع هذه النفسَ قائمة على الدين إذ التدبير فى ذلك أن يكون الحبُّ وهو التعلق المطلق بالجميل ، أيا كان مُظهر جماله سبيلا إلى التعلق بالجمال المطلق ، ويكون ذلك مؤديا إلى الطبيعة فى مظاهر جمالها وهى شتى بالحب ، ومن ثمّ يكون التعلق بمبدع الجمال الأزلى فى الطبيعة بكلّ ما فيها والتقديس لقدرته تعالى على الأبداع فى الخلق إبداعا لا حد له .

وأنت متحولةٌ فى هذا الكون أو هو متحوِّل لى فيك صورةً

أخاذةَ الفتنة ، تنطبع صورا فى النفس لتقول للنفس إنك تملكين هذا الكون فى ذات ليـــلى على حين أنك لا تملكين إلا أنك أحببتها فى ساعةٍ كانت من الخلود لأنها ليست من الدهر ، وفى بقعة كانت من الجنة لأنَّها ليست من الدنيا ؛ وانى من التيه والزّهو بما أملك كأننى على جناحى ملك من الملائكة يطير ، لا مستقرٌّ فى حقيقتى الأنسانية .

أنت . وأنت . . . وأنا . وأنا . . . والحق أنه لا أنت ولا أنا فقد رُفعت تاء المخاطب بيننا ولم يبق منى ولا منك إلا شكل واحد من شاعرية قائمة فى كيانها . قيام الحقيقة على برهانها .

«قيس»

حديث في رسالة

بين قيس وليلى

- ٢٦ -

قيسى :

أمريض أنت ؟ لا . لا.وإنما هوالحلم أرجف وخيّل ، وكان فيما تتقيه النفس ما يقع أكثرَ ما يقع من أنها تتقيه .

فيا ويحى من نفسى ، ويا ويح نفسى مما يُرجف الحلم ويخيِّل ، ويالى من هذا الذى يحزره خاطرى وكأنما يخلق فيه خلقا ، ومن هذا الوهم الذى تخرجه مخاوفى مخرج حقيقة أعوذ منها بالشك فيها .

أم وسنان أنت ؟ فلتكن سِنتك ملأى من أحبّ أحلامك اليك ؛ فان المرء ينتقل بالنوم من عالم المادة التى تزور عليه بالخيال حينا لأن الخيال يزيد عليه أو ينقص منه مالا يكون قد زاد ولا نقص ، وتؤلمه بالحقيقة حينا فتحصره فى ألمه ليحصره ألمه فى إنسانيته ، وتحصره إنسانيتهُ فى حقيقته العليا ، فهو من أيها كان كان فى سجن ؛ وذلك ألم الحكيم الذى يعرف أنه وجد فى الحياة لتظهر فيه كما هى ، لا ليظهر فيها كما هو ، ويكون فيها على وضعه من موضعه ، فننا متناهيا

فى الصِّغر ، من دوحة متناهية فى الكِبر ، فهو يذوى عليها فى فصلٍ ليتنضّر منها فى فصل آخر حتى يستوفى أجله ، والدوحة قائمة بعد ، تخلفُ منه، لأن فى جذعها مادّتها التى تخلف عليها ؛ فأما ألم الجاهل فإنه يكون فى جزعه ممّا يقع وما لا يقع ، وتظنّنه الذى يجيئه ممّا يحسب بما لا يحسب ، وسوء رأيه الذى ينقلبُ به فى نفسه كل معنى من السمو والحكمة إلى معنى من الضعة والجهالة ، ومن ثم يحاول أن يبلغ بما يمكن ما لا يمكن ، ويتمنّى أن يكون وحده هو المستثنى بالا من القاعدة المطّردة التى لا استثناء منها .

فداء ضجعتك للداء ضجعتى وحدى فى قبرى ، وفداء صعود إنسانيتك بالمرض إلى حقيقتك السماوية نزول إنسانى بالموت إلى حقيقته الأرضية .

هأنذا بين يديك ، آلم لك ألما يهز قلبى فى كيانى ، ولكنه يدعه فيه كما يهزّ الزلزال القوىّ بناء ولكنه يدعه بين حدوده من رقعته .

وهأنذا أسمو فى نفسى بالألم وهو شكلٌ من المرض ، كما تسمو فى نفسك بالمرض وهو شكلٌ من الألم ، وكلا هذين وضع خاصٌ فى تهذيب الأنسانية بجملتها فى الأنسان بجملته .

أو لا تسمع ، قيس ، كيف يدّارأ خاطرى وراء معان طريفةٍ من الحكمة ليشغل بها عن مواجهة الحقيقة ؟

أولا تفتح عينيك لترى تعبير رؤياك بين يديك ؟ فهذا حلمُك الذى كنت تحلمه يكلمك ويمسح بشفتيه على جبينك ، ليضع من أنفاسه الحارّة فى روحك رجاة أن تتماثل وإنك إن شاء الله لتتماثل .

قيس - إنى لأجد حولى عبقا من نَفَس ليلى ينسم علىّ فيعتلج وعلىّ من حولى .

وأسمع صدى من نجواها كأنما يرتفع من أعماق نفسى إلى أُذنى رقية شافية .

وأحسُّ خفة ظلّها تمتدُّ على نفسى بمعان من البرء لم أجد مثلها فى قارورة دواء ولا أظن أن مثلها فى تذكرة طبيب ولو تلقّفت تذكرته على روح صيدلية . . .

ليلى - قيس !

قيس - أمن النوم الحالم يقظة معبرة ؟

فيـــالك من يقظة ٭ كأنى بهـــا حالمُ

ليلى - بل من يقظتك تعبير حلمك .

قيس ـ ليلى !

ليلى ـ قيس !

قيس ـ ياله حلما عبقريا نوّل مالم ينوّل حلم قط ، فانى أرانى أخرج من سِنة تقاصرت بالتمنى ، لتتطوّل علىّ بالأمنية نفسها ونقلتنى من خيال الجنة لتنتقل إلىّ الجنة كلها بنعيمها كله .

ليلى ـ لا عليك ، قيس ، لقد انجلت عنك غمرة المرض لتغمرنى فرحة بك لا تنجلى.

قيس ـ خذى بيدى لأجلس وأستيقن أنك معى ، وأن يقينى قد عاد الىّ فيك وكأنما عاد إلىّ من سفر شاق بعيد .

ليلى ـ لا تحمل على نفسك ولا تجهدها ، خفف عنك ، فقد خففت اليك على أجنحةٍ من أشواق قلبينا فدع قلبينا يتهامسان ساعةً من وراء مادتينا .

قيس ـ ما فكرتُ فيك ساعة إلاّ خُيِّل إلىّ أن فى العمر فترة كأنها تسللت من طبيعة الزمن إلى العمر، لتكون فيه زمنا على حدة ملونا بأشهى لون وأحبه إلى نفسى .

ولا تمثلتُك مرة إلاّ شعرت من تخييل الصبابة كأن قلبي يخف

متحفِّيا بمقدمك فى موكب من فتونه وشجونه وعواطفه .

ولا هتفتُ باسمك فى حُلم من يقظتى، إلا حسبت أن اسمك لم يكن لفظا من اللغة يتأدى به معناه ، وبدا لى أنه هو عمل من ابتكار قلبى فهو لذلك ومضة من النار تتلظّى عليه .

ولا نظرتُ فى صورتك إلا قلت فى نفسى ، فى هذا الخيال السافر الذى هو ملء إطاره صورة من الحقيقة المحجبة التى هى ملء أقطارِ نفسى .

ولا ردّدت فى نفسى كلمة من كلماتك ، إلا علمت كيف تكبر الكلمة حيناً فتكون قدرا يلبس الحياةَ حتى تبلى ، وكيف يصغر القدر حيناً فيكون كلمة تُسطر بالمداد على الورق .

ولا نشرتُ كتابًا منك بين يدىّ أتلوه ، إلا شعرت أنه يذهب بى فى وجود خاص يتغير فيه كل ما حولى فى فكرى تغيرا عجيبا ، يلبس به كلُّ ماحولى غير حقيقته التى أعهدها ، كأن معانى كتبك تخلق فىّ خلقا آخر من أخيلة تنصب فى نفسى فتنة ونشوة وجمالا وجاذبية من الجمال .

ذلك ؛ وأنت فى خيالى ، كما أنت فى حقيقتك ، أداة التعريف التى

أخرج لي بها الكون جماله من تنكيره ، إذ كان بك جمال تعبيره ، ومن ثم كان عليك طابع قلبي ، فأنت فيه في كلّ ساعة حبيبة الساعة .

ليلى ـ رُحماك قيس إنك لا تدير على سمعي كلاما مما يتناقله الناس ، ولكنك ترسل على كياني من بلاغتك أقدارا تجرى عليّ بل تجرى بي فلا أتماسك عليها ، ولا أتمالك معها ، وإن نفسي لتفيض معاني من الحب لك كل معنى منها يصغر بالتعبير عنه ، لأنه هو يكبر عن كل تعبير ، وما أداتي في أدائه نوعا من الأداء إلاّ أن يجري من العينين دمعا إذ كان الدمع هو كلام النفس الذي تتكلم به في صمتها .

قيس ـ آمنت مرة أخرى أن الموت أن تفارق الحياة البدن ، ولكنّ الفراق يدع الحياة من ألمها كأنها تزايل المحب في كل حين ، فهو في مردّ أمره موت ولكنه أقسى الموت .

ليلى ـ وآمنتُ أن الحب شكل من جنون ، لكنه جنون القلب بأنبل مافيه ليبقى نبلا كلّه .

قيس ـ وأن الجمال هو معنى دقيق من جاذبية صغيرة ، يفسر المعنى الجليل في الجاذبية الكبيرة . وأن الحب والجمال في الحياة ، من أحدهما يبدأ ما يبدأ ؛ وفي الآخر ينتهي ما ينتهي ؛

من رسائله ورسائلها

التى لم تنشر بعد

— ٢٧ —

- ١ -

كتب قيس إلى ليلى فيما كتب : ماذا تقول الجنة حين تحتويك إلا أنك إيجاز منها أدقّ إيجاز وأنها إطناب منك أجلّ إطناب ؟

* * *

وكتبت اليه ليلى : إذا كان فى اللغة كلمة اجتمعت فيها حقيقة كاملة ووهم كامل فهى كلمة . . . كلمة الحب.

- ٢ -

وكتب اليها : كان فى كتابك إلىّ فيض الهىّ لا تبرح معانيه تتحول فى نفسى نشوة تخلق فى نفسى معنى من القدرة أرى به كل شىء حولى غير ما كان .

* * *

وكتبت اليه : لم أعد محصورة فى حدود إنسانيتى ، فانى أرانى من

سبحاتى ونزعاتى كأننى أطير فى أفق روحى عطر لا يزال يتّسع امامى ويمتدُّ امتداده .

- ٣ -

وكتب اليها كأنه يسألها : الحب أجمل مظهر من الأيثار لأنه يفنى ذات المحب فى الذات التى يحبها .

* * *

فأجابته كالمستدركة عليه : ولكن الحب على ذلك مظهر من الأثرة لأنه يحوى لذات المحب هذا الكون مصغرا مصغرا فى الذات التى يحبها .

- ٤ -

وكتبت اليه : أرى ، أفلا ترى معى أن فى كل إنسانة تحب - أمًّا ؟

* * *

فكتب اليها من فوره : وأومن، فهل تؤمنين معى ، أن فى كلّ إنسان يحب - طفلا ؟

- ٥ -

وكتب اليها : ترين أى المشكلتين أسهل حلا أو أصعب على الحل وراء الحب أم ما وراء العقل ؟

* * *

وكتبت اليه : أترى الحب وسيلة تتسلف بها إنسانة وهي بعد في الدنيا نقلتها إلى الجنة ؟ أم هو الوسيلة التي تتعجّل بها إنسانية نقلتها إلى النار وهي بعد في الدنيا ؟

- ٦ -

وكتبت اليه : أتطوى لهفة الحب بالمحب بعد ما بينه وبين حبيبته على ترامى البعد بينهما حتى يكون كأنه معها وهي ليست معه ، أم هي تخيل له من فرط ظمأ أشواقه حين يقرب ما بينه وبين حبيبته أن هذا القرب القريب هو من البعد البعيد حتى يكون وهي معه كأنه ليس معها ؟

* * *

فكتبت اليه . إنها عجب من عجب الحب !

- ٧ -

وكتب اليها : انقطعت عني كتبك فترة لأتصل بك في هذه الفترة أقرب اتصال وآكده ، فما أمسكها عني فيما أظن إلا أنك تدعين لي أن أقرأ في نفسي كتبك التي لا تكتبينها كما أسمع في قلبي صدى الكلام

الذى لا تتكلمين به .

* * *

وكتبت اليه : أحرُّ ما أكون دمعة حين يلجُّ فى نفسى معنى يدق أن يعبر عنه لأنه يجلُّ عن التعبير فيكون الدمع حينئذ هو التعبير بالممكن عن غير الممكن .

- ٨ -

وكتب اليها : حين أنظر فى صورتك أحسب أن طيفا منك يتمثل فى صورتك حتى كأن فى الأطار طيفا يهم أن ينطق .

* * *

وكتبت اليه : كأنك كنت تفكر فىّ أمس فقد استفضت على نفسى استفاضة كنت منها كأنك معى .

— ٩ —

وكتب اليها : فى طرفة العين لليقظة انبعاث النائم من موت أصغر من الموت ، وفى اطراقة الفكر من سكرة الحب ، أو من غشيته وهى أشد سكرته ، انبعاث المحب لحياة أكبر من الحياة .

* * *

وكتبت اليه ـ كأنما مرت بنفسى من كتابك إلىّ أنفاسٌ سَحرٌ علىّ بعضها فى موضع منه ، وتندّى علىّ بعضها فى موضع آخر ، ومر بى بعضها بين ذلك ؛ فأيقنتُ أنك كنت فى بعضه بين يأس وأمل ، ثمّ سكنت إلى الصبر وهو لا من اليأس ولا من الأمل .

— ١٠ —

وكتب اليها . ما فكرت فيك الا حسبت أننى معك ، وأن المعانى التى تختلف الى نفسى ساعتئذ لا تكون الا نجوى بين قلبينا لأن فيها من قلبينا .

* * *

وكتبت اليه : الحب قدر يقع لا كما يقع كلُّ قدر آخر ، ثم يلطف أو يخفُّ حتى يذهب أو يكاد ، ولكنه حين يجرى على امرئٍ يظلُّ يجرى ويطّرد مدى العمر .

— ١١ —

وكتب اليها : أعرف الحدّ يثبت حول ما يحده إلا حد جمالك فهو لا يثبت ، لأنه من فيض جمالك عليه يرتدُّ ثم يرتدُّ كأنَّ على جمالك طابعا من السحر يدعه يتضوأ فى ذاتك ويدع حده يتراجع

ثم يتراجع ، حتى ليشبه فى الوضع السياسى أن يكون منطقة نفوذ تبدأ بحدّ وتنتهى بما لا يُحد .

— ١٢ —

وكتب اليها : واها ثم واها لك أيها الحب أمنحة أنت ! ففيك نعيم الجنة كلّه ، أم محنة ؟ ففيك عذاب النار كلّها ؟

— ١٣ —

وكتب اليها - أيكون الحب هو الوسيلة التى يجد بها المحب المفتون روحه فى ثنايا إنسانيته فيخيل اليه أنه من حلمه الجميل فى جنة أجمل ، وهو فى هذه الدنيا لا يفتأ وهمومها تلحّ عليه ما تزال .

* * *

فكتبت اليه بل هو الوسيلة التى تفقد بها الحبيبة المفتونة روحها فى أطواء إنسانها إذ يؤدى اليها أنها تمر من دنياها فى النار وهى بعد فى دنياها تتنفس فى نسيمها . وتأخذ بقدر من نعيمها .

— ١٤ —

وكتبت اليه . ما الحياة لولا الحب ؟

* * *

وكتب اليها : وما الدّنيا كلها لولا ليلى وحدها ؟

* * *

- ١٥ -

وكتبت اليه : أرى فيما نتبادل من كتب ، رسالة عليها طابع صدقها ، فأحرِبنا أن نكون مبشّرين بهذه الرّسالة .

* * *

فكتب اليها . تباركت اللهمّ خالق الجمال دليلا من أدلّتك عليك . ومنشيء الحب مرقاة تسمو بالنفس الكريمة اليك .

خيالُ ليلى

يا نائيا والفؤاد فى أثره ... مُضناك سَلْه إن شئت عن خَبَرِه
قد عزّه شوقه فأسهره ... يا ويح للمُستهام من سَهَرِه
يطوى من الليل بُرْده تَعِبا ... لم يَشكُ من طوله ولا قِصَرِه
مردّدا فى نجومه بصرا ... حتى تَمَلّ النجوم من بَصَره
وكأنّما لاح بينها قمر ... هفا به شوقه الى قمره
يارحمتا للمحب ما صنعت ... به عيون المها على حذَره
كم يشتكى من صدود فاتنه ... إذا غفا عاذلوه فى سَحَره
ويرسل الدمع من محاجره ... يسيل منظومه بمنتثره
يا ساكن القلب وهو ملتهبٌ ... سلمت من حره ومن شرره
رفقًا بمضنىً غدا على خطر ... وراح من حبه على خطره
مَن مسعد الصبّ فى هوى رشأ ... الحسن فى دلّه وفى خفره
والغصن يهتزّ فى غلالته ... والبدر بادٍ منهـا لمنتظره

*
* *

مَنيّة المستهـام ناظره ... ومُنية المستهام فى حوَره
ياخائف السِحر لامررتَ به ... فالسحر فى لحظه وفى سَمَره

ويا صريع العيونِ خذ حذرا   من فاتك الطرف جدّ منكسره
ما أنس لا أنس ساعةً عدلت   عمرىَ مذ الإلهُ فى عُمره
نعمتُ فيها من أنسه طرِبا   بالحسن يبدو فى الجمّ من صوره
يؤنسنى والعذول يضجره   أفديه فى أنسه وفى ضجره

* * *

رحماك يا هاجرى بلغت مدى   هجر الذى أنت منتهى وطره
تجدُّ فى التيه ما يجدُّ به   هواك مهلا أسرفت فى ضرره
يانظرةً قد جنت علىّ وهل   جنى على مغرم سوى نظره
لم أجن غير الهوى ولا ظفرت   يداى إلا بالمرّ من ثمره



كلمات

مختارة من صحف هذه الرسالة وغيرها

ربما كان من مبالاتك أمرا فى كل حين ألاّ تباليه حينا .

* * *

فيما تتقيه النفس ما يأتى أكثر مما يأتى من أنها تتّقيه .

* * *

أحسن الكبر الكبر على الصغائر .

* * *

لو تحرّز المرء من أقلّ وهمه لتحرّر من أكثر همه .

* * *

من طغيان الحياة بأسفل ما فيها وأعلاه على النفس الكبيرة مؤاتاتها بأعلى ما فيها وأسفله للنفس الصغيرة .

* * *

أدنأ ما فى الدنىء أن الرفعة التى فى طبعك تطغى بها الدناءة التى فى طبعه فلا تمرُّ نسمةٌ من قِبَلك إلا على خبثٍ من قِبَله .

* * *

من التزوير بالتاريخ على التاريخ ، حسبان الهزيمة التى تناهت فى نبلها هزيمة ،والانتصار الذى تناهى فى دناءته انتصارا.

* * *

كلُّ شيء فى الحياة هو فى نفس المرء ما يعتقده أو يتوهّمه ، ولو كانت الحياة فى نفسها بكلِّ ما فيها غير ما يتوهّمه أو يعتقده .

* * *

أجهل الجهل أن تندفع إلى باطلٍ من الظن بما يجذب إلى حق من اليقين ، لأنك بذلك تزوّر على نفسك وتلبس عليها إذ تخرج لها من رغبتك الجامحة خيالا واحدا مخرج حقيقتين .

* * *

لا تردّنّ عنك أمل الناس فيك ، إن الناس وراء آمالهم فاذا رددتها ارتدّوا .

* * *

صدأ السيف بعضه ولكنه ربّما أكله كلّه .

* * *

شيئان كلٌّ منهما أقبح من الآخر وكلاهما قبح كلّه : تأنث الفتى

واسترجال الفتاة لأنْ كلا منهما محاولة للخروج من فطرة إلى فطرة.

* * *

اللئيم شكل إنسانىٌّ ولكن الأنسان ليس موضوعا فى هذا الشكل .

* * *

بعض الثراءِ من قبحه فقرٌ يلحُّ على نفس المثرى بأبغض مافى الفقر، وبعض الفقر من جماله ثراء يتنفَّس على نفس الفقير بأحسن مافى الثراء .

* * *

كن حيث كنت ولو قليلا ، فما أكثر ما يأتى الكثير من القليل .

* * *

فى كلِّ غنىّ لم تصر اليه فقرٌ لم يصر اليك .

* * *

لا تعرف قدر شىء على حالة بعينها إلا إذا اعتبرته على حالة أخرى .

* * *

ليس أذهب بالمنّة من المنّ بها ، ولا أدعى إلى بقائها من خفائها

* * *

اليأس صرع علاجه النصيحة والغرور مرض علاجه الفضيحة

هذه الرسالة

بدت لى منذ إحدى عشرة سنةً بداة لداعيةٍ دعت اليها مجيبا ، هى أن أجمع شكولا من المعانى التى اخترعتها فى تصوير الحب والجمال إذ كان موضوعهما من موضوع الأنسانية كلّها فى عصرٍ عصرٍ من التاريخ

ثم رأيت أن أنظم هذه المعانى ، تخليداً لها ، فى سلك من رسائل أدرتها بين قيس وهو فى عالميته من هو ، وليلى وهى فى علييتها من هى، وكسرت هذه الرسائل على هذا الفنّ من المعانى بما يعرض فى سياقتهِ من الخلجات والخطرات التى يمتُّ بعضها الى بعض بسبب، أو يؤلف بين شيء وشيء منها نسب ، لا لتكون منها رواية بمناظرها وفصولها من بدايتها التى بدأت ، إلى نهايتها التى لا أعرف كيف تنتهى، ولكن لتكون معرضا أدبيا لهذا الفن من الصور الطريفةِ الناطقة ، وتكون على ذلك جزءا من معجم موجز للخطرات والخلجات التى يمكن أن تمرّ بنفس محب يحب فوق ما يسع قلبه ، أو بنفس حبيبة يفنى قلبها فى حبها ولا يفنى على ذلك حبها .

وكنت فى تلك الفترة من العمر موزّع النفس بين التحرير فى

جريدة الأهرام الغراء وتدريس البيان فى الجامعة الأمريكية أوغيرها من المدارس الثانوية ، وكان وقتى لا يتسع لغير التحرير والتدريس ، وفى هذين مجهدة للمشتغل بهما فى آن، ومشغلة للجاهد فيهما ، تجعله كأنه فى دنيا أخرى من كراساته يمحو منها ويثبت فيها ، ومن مقالاته يلاحق بها أو يسابق الأيام، إلى أحوال فى الحياة كان منها جزرها ومدّها.

وكان صفوة من أصدقائى وجمهرة أخرى من المثقفين يستمعون وقتئذ لهذه الرسائل كالمأخوذين بجَرس أوضاعها ، وطرافة معانيها ، وسياق أسلوبها .

ثم بقيت هذه الرسائل على طيتها، وعرض من دون إكمالها وطبعها ما يعرض فى مثلها المثلى ، وطغت الحياة بتصاريفها؛ وبما أحاطت وما أمرّت ، على هذه الفكرة فطُمرت الرسائل كما طمر غيرها من التآليف ، التى كنت أنظر اليها آسفا على أن حالت الحوائل دون تمثيلها للطبع .

وضربت السنون بين هذه الرسالة والحريصين على طبعها ،حتى طُلب منى أن أنشر منها ، فنشرت منها منذ ست سنين فى جريدة كان تحريرها وقتئذ ضريبة، وكان نشرها ضربا من الطىّ ، غير أنى عرفت من القائمين

على تحرير تلك الجريدة وقتئذ ، أن قراء الرسالة كانوا يرونها فتحا جديدا في الأدب العربى ، وكانوا يتابعونها مشوقين إلى المزيد منها، وكان ممّن نظروا فيها أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقى بك وقد وقعت من نفسه فتفضل بالثناء عليها ، ولعلى بهذا الثناء أتوج هذه الرسالة .

أدب عصرين

طلب منى كثير من الاخوان أن أعيد نشر رسالة (أدب عصرين) هنا فاجبتهم إلى ما أرادوا .

كتب ابن المقفع يصف صديقا له:

« انى مخبرك عن صاحب لى، كان من أعظم الناس فى عينى . وكان رأس ما أعظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه .

كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يتشهّى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد.

وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعو اليه ريبة ولا يستخف

له رأيا ولا بدنا .

وكان خارجا من سلطان لسانه فلا يقول مالم يعلم ولا ينازع فيما لا يعلم.

وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم أبدا إلا على ثقة بمنفعة.

كان أكثر دهره صامتا ، فاذا نطق بذ الناطقين.

كان يرى متضاعفا مستضعفا ، فاذا جاء الجد كان كالليث عاديا.

كان لا يدخل فى دعوى ولا يشترك فى مراء ، ولا يدلى بحجة ، حتى يرى قاضيا فهما وشهودا عدولا.

وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر فى مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره.

وكان لا يشكو وجعا الا الى من يرجو عنده البرء.

وكان لا يستشير صاحبا الا من يرجو عنده النصيحة.

وكان لا يتبرم ، ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى .

وكان لا ينقم على الولى ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل

خير من ترك الجميع. » اهـ

*

* *

وكتبت مهتديا بهديه أصف صديقا لى : إنى مخبركم عن صاحب لى ملأت منه يدى، وطويت على حبه نفسى، وجعلته ضِنى من بين صحبى.

فقد كان بصيرا بورِد الأمور وصدَرها يعرف من مطلع كلّ أمر ما يكون مقطعه، وتقوم أدنى فراسة منه مقام البينة، ويصيب بالظن ما يخطىء غيره بالعيان.

كان أكتم ما يكون للسِّر، إذا باحت الألسنة من الأسرار بمصونها، وانفرجت صدور الثقات عن مكنونها.

كان أبيا لو خطبت له إمارة على أن يكون مهرها ذلّ ساعة لآثر أن يزِفّ إلى قبره على أن تزفّ إليه الامارة.

كان صُلب العود على النوب، إذا رماه الدهر بخطب يبلوه، بلى منه الخطب بالنفس المرة، والخلق الوعر، والصدر الذى تضلّ فى ساحة صبره كل نائبة.

كان متورِّعا، لا يقوم مقاما يقع عليه ظل ريبة، ولا يقف موقفا تسحب فيه ذيلها شبهة، ولا يقول قولة أو ينظر نظرة تعقبها ظِنة.

كان كريما جم الأيثار، يطوى بطنه عن جاره،ولا يملك من ماله أكثر مما يملك منه اخوانه .

كان يقنع بالقليل فما أكل فبلغ الشبع ، ولا شرب إلادون الري ، ولا لبس منمنما ولا معلما ، ولا توسد حريرا ولا وثيرا ، وكان فيه عزة الملك وعليه سيما الزاهدين .

كان فتيا ، ولكن همته كانت ترمى به وراء سنه ، وهو يرمى بهمته حيث أشار اليه السؤدد .

كان باهر الأدب : يشير عليك موهما أنه يستشيرك ، ويدلك على الرأى وكأنه يستدل بك عليه ، ويريك مقطع الحق ويدع لك أن تقطع من دونه ، ولو رأيته وقد مثل بين يديه مستفيد لحسبته بين يدى المستفيد ماثلا . أو سمعته وهو يجيب مسئولا لحسبته سائلا .

كان أملك مايكون لنفسه إذا رضى ، ولحلمه إذا غضب ، ولجده إذا لعب ،ولوقاره إذا طرب.

كان طويل الصمت كأن بلسانه عوجا ، فاذا نطق استقام على نهج من البيان تتراءى فيه حكم تأخذ المرء قبل أن يأخذها .

كان قليلا ما يكتب ، ولقد مضى عن كتاب،فكان الكتاب من

يدك الى عقلك إلى روحك ، كالزهرة الناضرة تراها نسيجا فى أناملك حريره ، ثم تعرفها طيبا فى أنفك عبيره ، ثم تدركها شعرا فى نفسك وحيه وتعبيره

كذلك كان صاحبي ، ولبعض تلك الخلال يُكبر الرجلُ الرجلَ ولكنه :

صفرت كفى منه ومضى وقد امتلأت منى يده

مكرمة صديق

كان فيمن عزّ عليهم أن تبقى هذه الرّسالة فى موضعها سرا مكتوما كتمان سر وضعها ، صديقى السّرىّ القلم ، القانونى الفاضل الأستاذ حسن خليل ، فانه شق عليه أن يكون حظها كحظ من كتبت باسميهما فلا تجتمع حتى خواطرهما فى كتاب تتداوله الأيدى ، وذكر ذلك فى نادضم لفيفا من صفوة شباب مصر الذين هم فى هذا العصر أشبه بأوّليّتهم فى عصرها طماحا إلى الفضل يخلدونه ، والمجد يبنونه ، وهم أبناء الأسرة المذكورية الكريمة ، متمنّيا أن يجد منهم عونا على طبع هذه الرسالة ، فكان أسرعهم تلبيةً ذلك السرىّ الأمثل الذى جمع إلى تليد المجد طريفه ، عبد الواحد عبد النبي مدكور بك ،فقد هزته أريحيَّته

فأخذ على عاتقه أن يعين على طبعها خدمةً خالصةً لوجه الأدب أجزل
الله مثوبته .

فليهن قيسا وليلى أنهما يتواصلان بسريرتيهما فى أوراق هذه
الرسالة ، بعد أن عزهما ذلك فيما غبر، فانهما ليجتمعان اليوم بمعنييهما
فى حَرَم هذا الكتاب اجتماعا لا فرقة تعقبه . ولا ظاعنة ترقبه .
وليسعدا بهذا اللقاء المعنوىّ من بعد ، أضعاف ما شقيا بالفراق
من قبل ، ولتبق لذكراهما حرمتها من التنزيه والسموّ والجلال .
وإنى لأكرر جميل ثنائى على هذه الأريحية النبيلة ، وتلك الهمة
الرفيعة، وليبارك الله على هذه الصداقة التى شرّفنى بها ذلك الصديق الكريم.

الخطأ والصواب

وقع فى هذه الرسالة سهوا مالا يفوت ذكاء القراء تداركه ،
من ذلك زيادتان فى الصفحة الثانية والعشرين اولاهما (لا بل قد).
فى السطر الثانى منها والثانية (ولطفك جبر يله) فى أول السطر الخامس.
منها وماخلا هاتين فهوات مطبعية صوابها ظاهر.

فهرس الرسالة

صفحة

